الفصل الثاني

النموذج الإسلامي
خلق الإنسان

قبل الدخول في موضوع الفرد والجماعة أرى أهمية التمهيد بالملاحظات التالية التي تساعد في وضوح المنهج العام الذي استندت عليه في البحث، وفي إلقاء ضوء على الجو العام الذي يسوده:

أولاً: بدا لي الإسلام عبر سنين وكأنه كم فقهي يفتقر إلى وعاء فكري متكامل أو نسيج شامل يشكل قاعدة للبناء في مختلف المجالات بما فيها القضايا الفقهية. وجدت في المكتبة الإسلامية ما يعزز هذا من حيث الكم الكبير من الكتب التي تتناول قضايا فقهية حياتية يومية دون القضايا الفكرية التي تحدد المبادئ الشمولية لسير الحياة الإسلامية. لقد انشغل المسلمون كثيرا في قضايا العبادات ذات الشعائر والمعاملات اليومية وصبغوا أغلب مؤلفاتهم بها. يجد الباحث في المكتبة الإسلامية كتبا كثيرة تتحدث عن الصوم مثلا وأحكام الوضوء، لكنه من الصعب أن يجد كتبا حول أهمية البحث العلمي في الإسلام أو تنظيم الكليات الجامعية. علما أن المعلومات حول الصيام والوضوء مكررة، وإن وجدت اختلافات بين الكتب فهي ليست جوهرية.

من خلال قراءتي للقرآن الكريم (وما أعنيه بالقراءة ليس التلاوة وإنما الدراسة المتأنية) وجدت أن اعتمادي على الأحكام الفقهية لفهم القرآن ليس كافيا ولا يشكل

مقياسا حاسما. ووجدت أيضا أن الاعتماد على الإرث الثقافي بمختلف مشاربه يساهم في تحسين المعرفة وتطويرها لكنه لا يشكل حدا نهائيا للتحصيل المعرفي والعلمي. فضلا عن أن التراث له وقع يأسر القارئ المسلم وذلك نتيجة تركيز العديد من الكتاب المسلمين عليه واعتباره المرجعية النهائية لفهم الإسلام. لقد تم التركيز عليه حتى بات المرء يظن أنه هو الإسلام نفسه وليس مجرد إبداعات إسلامية يمكن أن يبنى عليها وتتطور. يحاصَر المسلم بهذا الشعور الذي اعتقد أنه بني على أسس غير علمية لم تخدم الإسلام والمسلمين.

لقد تناقلنا عن المتوارث أن الإسلام نظام كامل متكامل وهو مستقل بذاته ومتميز عن النظم الأخرى وتنبثق عنه نظم سياسية واقتصادية واجتماعية. قيل للأجيال أن النظم موجودة في التراث والكتب المأثورة ولا داعي لمواصلة البحث لتطويرها، وكان على المسلم أن يلتزم وان يطور عبر الزمن موقف مراقبة الذات من خلال الخوف من الدخول بما أخذ يظنه أنه محرم. حسب عبد الحميد أبو سليمان، فقد تم ترويض المسلمين بطريقة أصبحوا معها لا يجرءون على تحليل التراث والمقدسات مما جعلهم في رؤية غامضة حول قضايا دينهم. ويضيف: " لقد شل ما غرسناه في أنفسنا من معاني الخوف والرهبة وانعدام الثقة بالنفس قدرتنا على النظر في أحداث الماضي وملابساته ونقائصه، ولذلك ظل العقل المسلم حتى اليوم أسير مفاهيم ومنطلقات أساسية تجعله حبيس أخطاء الماضي وانحرافاته ... "[1].

هذا ويصاحب حملة تمجيد التراث وحصر الإسلام فيه حملة التبجيل المتواصل للإسلام بهدف ترغيب القارئ فيه. هناك كتب كثيرة ترتكز أساسا على أفكار المؤلفين السابقين وتسهب كثيرا في عبارات التشويق والاستحسان إلى درجة يضيع فيما بينها الموضوع وتحتار الفكرة. ومع هذا هناك إطناب في ذم الغرب والحضارة الغربية بحيث يشعر الكاتب أحيانا أن الغرض من الكتابة هو الإسقاط

وليس تقديم أفكار وقضايا . أي أن بعض الكتاب يحاولون جذب القارئ إلى الإيمان من خلال صب اللعنات على الحضارة الغربية . وبين طيات هذا الموقف لا يقدم الكاتب إلا أفكارا ضعيفة لا ترتقي إلى مستوى المنافسة التي تستقطب أو تقنع العقول . وقد وصف أحد المؤلفين هذا الوضع قائلا بأن المسلمين اكتفوا بمحاربة الاستشراق والحديث العاطفي عن الإسلام ، والتحذير من الغزو الغربي ، ولم يظهر منهم إلا الأصوات العالية [2] . الصوت أقوى من الفكرة والسيف أطول من القامة ، وعلى المسلمين أن يعيدوا النظر بما يصنعون ويعوا بأن أحسن تشويق للإسلام هو تقديم المعلومات بقالب علمي يطرح حلولا لمشاكل الناس وهمومهم ، وأن مواجهة الحضارات لا تتم بالاسقاطات وإنما بتقديم الإنجازات التي تثبت نجاح الأفكار .

ثانياً : النظام الإسلامي كما يبدو من خلال طرح عدد من الكتاب عبارة عن تعبير عام معالمه ليست واضحة تماماً ، وفروعه ليست محددة التعريف . كثيرون هم الذين يتحدثون عن نظام الإسلام لكن التعبيرات ما زالت متباينة والمعاني غير متفق عليها ، وأكثر الكتب التي تتناول الموضوع تتحدث عن خواطر وأفكار بدلاً من تقديم قواعد ومبادئ متشابكة تشكل نسيجاً واحداً . على الرغم من أن هناك محاولات جادة نحو استنباط نظام إسلامي شامل ونظم ثانوية تتفرع عنه ، إلا أنها لم تقطع شوطاً طويلاً بعد . جرت في الماضي محاولات خاصة فيما يتعلق بمسألة الخلافة وأسس الحكم لكنها لم تستنفذ مختلف القضايا الجوهرية ، وما زالت الحركة السياسية العالمية تواجه المسلمين بالكثير من الأسئلة التي تتطلب الإجابات .

لا أجد أنه من الصواب استنباط نظام يطلق عليه صفة الإسلامي واعتباره ثابتاً على مدى الأزمان والأجيال ، بل من الممكن استنباط نظام لكنه متحرك وقادر على التعامل مع مختلف التطورات والأحوال . ذلك أنني لا أرى إمكانية وجود فهم

إنساني ثابت للقرآن الكريم بسبب محدودية الإنسان وعدم تمكنه من الوصول إلى حدود معرفية مطلقة. المحدود لا يرتقي إلى فهم كلية اللامحدود أو المطلق وهو كلام الله عز وجل ، ولا أرى أن الباحثين يستطيعون الوصول إلى نتائج قاطعة تتجاوز الحدود المعرفية لمراحلهم التاريخية بمسافة كبيرة. فما دام المنطلق يبدأ من حدود معرفية معينة فإن التجاوز يستند عليها ولا ينفصل عنها. لذا يمكن أن تكون نتائج بحث علمية مطلقة فقط ضمن حدود الزمان والمكان ، وهي لا تلبث أن تصبح نسبية مع توسع الحدود المعرفية واتساع الآفاق العلمية. بمعنى أن الفكر الإسلامي غير خاضع لمعيار الثبات وإنما متحرك بصورة تصاعدية وذلك تبعاً لجهود الباحث الإسلامي وتقدمه المعرفي. أي أن ما أتقدم به من جهد الآن لا يعدو كونه خطوة ستتلوها خطوات باحثين آخرين ، والجهود تبقى تتراكم ويتطور إنتاجها. لكن يبقى من المهم ألا يتجاوز الباحث باحثاً سبقه على اعتبار أن الماضي لا قيمة له إذ في هذا خطأ علمي كبير. معيار الثبات ينطبق على القرآن نفسه وليس على الفهم الإنساني له.

ثالثاً: هناك مقولة تنص على أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، ويبدو أنها بحاجة إلى جهود كبيرة للمحافظة عليها خاصة أن عدداً من المتمسكين بها لا يصلحون لكل زمان ومكان ، وبعضهم ربما انتمى إلى زمان قد مضى وإلى مكان لم يدخله الكثير من النور. إن من يؤمن بهذا عليه أن يدعم إيمانه بالعمل حتى لا يبقى كلامه مجرد شعار لا يعرف طريقاً نحو التنفيذ. من جانبي ، أرى أن المقولة صحيحة من الناحية الإيمانية لأن من يؤمن بالله يؤمن بالضرورة أنه لا يصدر عنه إلا الحق ، والحق صالح لكل زمان ومكان. لكن الوقوف عند هذا الحد لا يكفي ، بل يجب أن يقتنع المشاهد أو المستمع بأن ما يقال صحيحاً. أما إذا اكتفى المرء بالقول ، أو قام بأعمال انتمت إلى زمان غير الزمان ومكان غير المكان فإن قوله يرتد ضده مما يلحق الأذى بالمسلمين عموماً وينعكس سلباً على صورة الإسلام.

هذا ليس من شأنه أن يزعزع الإيمان في قلوب بعض المسلمين فحسب وإنما يمتد ليؤثر سلباً على انطباعات غير المسلمين عن الإسلام.

حتى تبدو المقولة صحيحة لا بد من تناول المعضلات الفكرية المختلفة خاصة تلك التي تسود في زمان ومكان معينين وتشكل بالنسبة للناس اهتماماً أساسياً. المفكر أو الفيلسوف أو الدين يستنفذ طاقته ومبرر وجوده إذا لم يكن من شأنه معالجة شؤون الناس وهمومهم ووضع الحلول لحياة إنسانية مطمئنة وهادئة. من يفصل نفسه عن الناس يفصل الناس أنفسهم عنه ، ومن يقبع في صومعة يتنسك فإن نسكه لنفسه لا يقطف أحد من ثمارها شيء ، إن كان لها ثمار. لهذا فإنه من الضروري للمسلمين أن يواجهوا المعضلات المختلفة ليقدموا للناس ما يرونه من حل إسلامي يؤدي إلى الغايات المرجوة. فالإسلام ، كما أراه ، ثابت الأصول ، متجدد الرؤية والاجتهاد ، ويحمل في داخله اتجاهات التجديد ، وهو لا يضيق بمسلمين يعقلون ويتفكرون ويتدبرون.

رابعاً: عانى المسلمون عبر قرون من الربط الجامد بين اللغة والفكر واعتبروا أن التعبير اللغوي التاريخي هو افضل تجسيد للفكرة وأن تجاوزه يقود إلى الوقوع في المعاصي. وخلت قلوبهم من إضفاء الحيوية على عملية الربط ومن إعطائها مرونة الحركة التي من شأنها مواكبة التقدم الإنساني في مختلف مجالات الحياة. وبذلك ظهرت الأفكار الإسلامية وكأنها تمسمرت عند نقطة معينة أو تقولبت بجمود عند حد تاريخي معين ، وكأنها تجر المؤمنين بها إلى الخلف ولا تدفعهم نحو المستقبل. لقد تعرض العربي والمسلم على حد سواء إلى استدخال الرعب من الجديد حتى ظن أن كل جديد مهما صغر يقود إلى غضب الله ومن ثم إلى الجحيم. وقد شمل الاستدخال اللغة والفكر معاً بحيث عزز جمود كل منهما جمود الآخر.

جمود اللغة لا يؤدي إلى فهم إنساني متصاعد للحق الوارد قرآنيا لأن اللغة بذلك تعجز عن التعبير عن أفكار جديدة قد يصل إليها مفكر ، وجمود الفكر لا يقود إلى تطوير اللغة لأنه يضغط عليها من أجل تطوير متطلبات تعبيرية جديدة. ولا بد أن قارئ القرآن يعي تماما الإعجاز القرآني وهو يكمن ، فيما يكمن فيه ، في دقة التعبير اللغوي بحيث صيغت التعاليم بمعاني محددة وعلى المسلمين العمل باستمرار على استيعابها ، ووصفت النواميس بطريقة تشجع الإنسان على البحث والتمحيص. القرآن ليس كتابا في الأدب لكي يسرح فيه الخيال ، وإنما كتاب حق ينشط في محاولات تدبره وفهمه العقل والفكر. ولهذا فان التدقيق في كل كلمة منه مهم ، وكذلك في كل حرف وكل وقوف. وحتى يتطور فهم المسلمين لما يؤمنون به فان عليهم إخراج اللغة من قفصها التاريخي بحيث تكون المعبر عن التاريخ وتطوره وليست أسيرة له. بهذا يتطور الاعتماد المتبادل بين اللغة والفكر ويصبح كل منهما عنصرا مساعدا للآخر سواء من ناحية التعبير عن الفكرة أو من ناحية تطوير اللغة لتكون أداة سلسة في التعبير عن الفكر. جمودية اللغة خطرة على التطور الفكري، وجمودية الفكر تعاكس حركة التاريخ. وكما يضعها محمد أركون أن الجمودية تسحب فهمنا للقرآن والحديث نحو " اللغة التشريعية والقانونية والمعيارية : أي نحو الحرفي الوضعي. " [3] هذا ويعتبر زكي نجيب محمود أن تخلف اللغة يؤثر على التقدم العلمي ويرى أنه يجب تطوير اللغة بحيث ترتقي إلى مستوى التفكير العلمي، وإخراجها من وظيفتها الترنيمية. [4]

خامساً : يقع بعض المسلمين الذين يتطلعون نحو التقدم انطلاقا من التجربة الغربية في أغلوطة عندما يحاولون ترغيب الناس بالأنماط الغربية بناء على تبريرات إسلامية ، فيقولون مثلا أن الإسلام ديمقراطي لأنه نص على الشورى ، أو أنه اشتراكي لأنه فرض الزكاة. تعيد مثل هذه الأغلوطة السابق إلى اللاحق وتنفي ضمنا استقلالية الإسلام كنظام أو إمكانية أن يكون كذلك. أي أن القائل بهذا ينفي

الإسلام من خلال استعماله كمبرر ويؤكد ضمنا تفوق أنظمة أخرى. المبرر منفي لصالح نتيجة مشمولة أصلا في صدر الأغلوطة ومهيمن عليه في عجزها.

مثلما يمثل هذا الأمر خروجا عن فلسفة العقلانيـــة ، يمثـــل الرافضـــون للدراســـة المقارنة هروبا يحجب الإسلام عن معترك الجدل الفكري العالمي. يؤدي الانعزال عن التطور الفكري العالمي إلى خمول في الفكر ويبقى"المفكر" عالة على الماضي يستنجد به انفعاليا وعاطفيا. وإذا تمسك علماء المسلمين بموقف سلبي مسبق مـــن التطور المعرفي للإنسان فانهم لن يجدوا أمامهم سوى البحث في كتب التاريخ ليروا أنفسهم من خلالها بدون تحقيق إنجازات حقيقية.

وكما سنرى خلال البحث ، التوازن هو الركيزة الأساسية للفكر الإســـلامي ، وان الخروج عن نقطة التوازن أو محوره عبارة عن زيغ يقود إلى انـــدثار أو طغيـــان يقود إلى هلاك. من هذه الزاوية ينظر إلى هذا البحث. فهـــو لـــيس جريـــا وراء حضارة عالمية تلغي الإسلام ، ولا هو عداء لها يعزل الإسلام. أنه بحث ينـــاقش قضية فلسفية ما زالت حاضرة بقوة الآن وستبقى كذلك في المستقبل. إنها قضـــية هامة أن لم تكن حاسمة في فهم الطرح الإسلامي وكيفية ترتيبه للعلاقات.

الإنسان والفرد لغوياً

لا يرد في القرآن الكريم كلمة فرد أو الفرد ، ولا حتى كلمة شـــخص وإنمـــا تـــرد كلمتا فرادى وفردا. قال تعالى: " ولقد جئتمونا فرادى كمـــا خلقنـــاكم أول مـــرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فـــيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون." [6] وقال: " قل إنمـــا أنـــا أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هـــو

إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ." [6] وتقول آية أخرى :" ونرثه ما يقول ويأتينا فردا ." [7] وتنص أخرى : "وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ." [8] ويرد في القرآن كلمات مفردة مثل المؤمن والكافر والمنافق للدلالة على صفات عقائدية وحالات ذهنية تنبثق عنها سلوكيات للناس أو للواحد منهم . وبصورة عامة يلاحظ قارئ القرآن الكريم أنه لا يوجد خطاب واضح موجه لواحد منفصل ، أو أنه يعطي انطباعا بأن هناك تعاملا مع أفراد يمكن أن يشكل الواحد منهم هوية منفصلة عن الآخرين . الآيات المشار إليها أعلاه تتحدث عن موقف أو حالة مادية للشخص المعني ولا تتحدث عن حالة ذهنية . لكن الآية الأولى تتحدث عن الخلق أول مرة وأنه كان فرادى . فهل كان هناك خلق آخر غير الخلق الأول ؟ سنرى ذلك .

الخطاب في القرآن الكريم موجه لكل الناس جماعات وآحادا لكن دون أن تكون هناك رؤية للتعامل الانفرادي أو الشخصي أو ميل نحو العزل أو الإفراد . بمعنى أن الخطاب حتى لو وجه إلى المؤمن أو الكافر أو أي أحد يحمل أي صفة أخرى يبقى موجها إلى الواحد ضمن الإطار العام أو ضمن حالات ذهنية تشكل الأرضية المسبقة للسلوك الإنساني .

أما في السنة فقد ورد في الحديث إن صح نقله !" لا تعد فاردتكم" بمعنى أن الزائدة على الفريضة لا تضم إلى غيرها فتعد وتحسب. لم ترد ، حسب معرفتي، كلمة فرد في الحديث وجاءت كلمة فاردة هنا بمعنى خارج ما يعد .

وردت كلمة فَردَ أو ما يشتق منها في التراث بخاصة في الادب العربي . فكان يوصف الحيوان المبتعد عن القطيع بالفارد ، فقيل ظبية فارد بمعنى انفردت وحدها وابتعدت ، وغالبا ما استعمل التعبير فيما يخص حمر الوحش . يقول **لسان العرب** أن هذا المعنى يجري على الشجر فيقال سدرة فاردة أي انفردت عن سائر السدر .

هي ليست مع الجماعة ، وليست متميزة عنها فقط وإنما بعيدة أيضا . وكذلك بالنسبة للنجوم المسماة بالدراري التي تطلع في آفاق السماء وذلك بسبب ابتعادها أو تنحيها . وإذا قال المرء استفردت الشيء فانه يعني أخذته فردا لا ثاني له ولا مثل.

إجمالا يقول **لسان العرب** أن الفرد يعني أنه لا نظير له. أي أن الأفراد ليسوا نظراء ولا أمثال بعضهم البعض . أما القاموس **المنجد** فيعيد كلمة فرد إلى أصلها الثلاثي فَرَدَ والتي تعني اعتزل وتنحى ، أي اعتزل الناس . المعاني التي يسوقها **لسان العرب** أكثر دقة من **المنجد** خاصة أنه يميز بين الكلمات ويبتعد عن التفسير الذي يعتمد المترادفات . الاعتزال ليس عملا تلقائيا بدون خلفيات اجتماعية أو سياسية أو غيرها وإنما يستند على بعض الخلافات في الرأي أو العقيدة أو المنهج أو أي سبب آخر يثير في المرء شعورا بالتميز عن الآخرين ورغبة بالابتعاد عنهم. هذا يختلف عن المعنى الذي تشمله كلمة فرَدَ من حيث أنها تعبر عن سلوك غير مستند على ظروف اجتماعية حسب ما يورده **لسان العرب** . فالاستعمال التراثي للكلمة من حيث الحيوان فارد والشجرة فاردة لا يأخذ البعد الشعوري بقدر ما هو فعل تلقائي له أسباب طبيعية وليس اجتماعية . عزل واعتزل تختلفان جوهريا عن فرَدَ . عزل عبارة عن فعل يقوم به شخص بخصوص شخص آخر أو شيء واعتزل تعبر عن قرار واع ناجم عن سبب واضح له علاقة بالنشاط الاجتماعي للإنسان . أي أن عزل واعتزل تعبران عن نتيجة تفاعل إنساني من نوع ما ، لكن فرد تعبر عن غياب التفاعل البيني لصالح التأصل السلوكي الداخلي.

بما أن كلمة فَرْد مشتقة من فَرَدَ فهي تعبر عن سلوك إنساني تتأصل فيه نزعة الشعور بالتميز والانفصال ، إنها نزعة طبيعية غير متعلقة بظروف وغير مكتسبة. أي أن الفردية تخرج عن نطاق التفاعل الإنساني البيني وعن دائرة تباين الآراء أو تضاد المعتقدات والعقائد لتكون توجها إنسانيا حتميا لا مفر منه ، ولتعبر عن سلوك

طبيعي غير مرتبط بظروف أو واقع مادي . وهذا يعني أن الفردية تحجب الرؤيـــة الجماعية أصلاً ، وان توجه الشخص ، إن وجد ، نحو جماعة أو مجموعة مـــرتبط أساسا بما يحتمه عليه توجهه الطبيعي . أي أن عمله الجماعي ليس فـــي الحقيقـــة عمل جماعي وإنما عمل فردي يبدو وكأنه عمل جماعي . إنه نتاج عمـــل فـــردي يتطلب جهود الآخرين أو يدفع إلى التعاون معهم ليس بقصـــد التعـــاون . وكـــأن التعاون عبارة عن آلية يستخدمها الفرد كأي آلية أخرى بدون أي بعد إنساني .

أما إذا أخذنا كلمة إنسان فإنها تعود إلى أصلها الثلاثي أنسَ وذلـــك حســـب **لســـان العرب** و**المنجد** . أنس هي نقيض توحش . يقول **لسان العرب** أن الإنس هو خلاف التوحش وهي مصدر القول أنِسَ ، ومنها جاء الإنس وهي جمع إنسي . والإنس هم الناس . تأتي من الكلمة كلمة إنسان والتي تعني عدم التوحش واللقاء مع الآخـــرين. أي أن الفعل أنس أن يأنس لا يتم إلا بوجود طرف آخر غير الذات ، بمعنى أنه لا بد من وجود لقاء بين طرفين أو أكثر . الإنسان لا يأنس نفسه وإنما يأنس غيره لأن الأنس ليس من منبع ذاتي وإنما منبعه خارجي . فكل إنسان يشـــكل عامـــل أنـــس بالنسبة للآخرين .

بعض اللغويين والمؤلفين يرون أن كلمة إنسان مشتقة من الفعل نَوَسَ ومصـــدرها نوْس . [9] النوس حسب لسان العرب هو التذبـــذب ، ويقـــال الرجـــل نـــواس إذا اضطرب . ويقال ناس لعابه أي سال واضطرب . وقد اشتقت منها كلمـــة إنســـان حسب البعض مثل **المصباح المنير** ، [10] لأن الإنسان كثير الحركة والنشاط . لكن هذا الرأي ضعيف والباحث هنا لا يميل إليه لأن هناك كائنات وحيوانـــات تتحـــرك كثيرا وربما أكثر من الإنسان مثل القرد والأسماك ومنها ما هو دائم الحركة مثـــل الكواكب. صفة الحركة لا تميز الإنسان عن غيره إلا إذا أضيفت لها صفة الواعية، وإذا بقيت هي المعيار في إطلاق الاسم فمعنى ذلك أن مخلوقات كثيرة ينطبق عليها

الاسم . ولهذا يتعامل البحث مع المعنى الأول على أنه هو الصحيح وستتضح لنا من خلال البحث أسباب أخرى لهذا الترجيح .

وإذا حملنا المعنى بصورة أقرب إلى المفاهيم الاجتماعية نرى أن الإنسان هو القادر بالطبيعة على إقامة العلاقات مع الآخرين ، وبما أن هذه العلاقات ذات صفة ارتياحية أن باعثة على الطمأنينة فهي هادفة . وإذا كانت هادفة فهي عاقلة . أي أنها طبيعية ولكن يبرمجها العقل حسبما يرى مناسبا لتحقيق الهدف . بعبارة أخرى، يقيم الإنسان علاقات آنسة بالطبيعة لكنها علاقات عاقلة تحمل في داخلها حرية الاختيار (حرية اختيار نوعية العلاقة ومداها ومع من ، الخ). أي أن الإنسان آنس بالطبيعة ولكن ليس على النمط الحيواني الذي يجمع القطيع معا بصورة مبرمجة غير واعية بالنسبة لها .

هنا يتحد الواعي والطبيعي، الذاتي والموضوعي . لا توجد حرية اختيار بالنسبة للإنسان فيما يتعلق بالاجتماع أو إقامة علاقات مع الآخرين ، لكنه يملك حرية الاختيار ضمن هذا المبدأ . هناك ميل طبيعي نحو الاجتماع ، لكن ضمن هذا الميل تكمن حرية الإنسان في الاختيار . فهو يستطيع أن يمارس حريته ضمن الطبيعي، وبذلك لا يتولد لديه شعور بالاغتراب لأن الطبيعي عبارة عن جزء منه ، ولو كان للإنسان أن يختار ضمن ما هو طبيعي لاختار الطبيعي ، إنه جدل ضمن الذات منعكس على الذات . على أية حال هذه الوحدة الواردة إسلاميا ستتضح بصورة أفضل في الصفحات القادمة .

بناء عليه ، هل بالإمكان أن نقول الإنسان الفرد ؟ الكلمتان إذا أعدناهما إلى أصليهما الثلاثي عبارة عن قطبين متنافرين لا يجتمعان . فإما إنسان يأنس بالآخرين وإما فرد يتميز وينفصل عن الآخرين . التعارض بينهما واضح بحيث لا

يمكن أن يجتمعا . فإما إنسان وإما فرد ، ولا يبدو صحيحا من الناحية اللغوية أن نصف الإنسان بالفرد أو الفرد بالإنسان إلا ضمن موقف انفرادي لا يعبر عن الحالة الذهنية للإنسان . إنهما يحملان معنيين مختلفين ولا يجوز الجمع بينهما على أنهما واحد . تنقلنا اللغة إلى البعد الفلسفي للكلمتين بحيث يتضح التناقض القائم في الاستعمال الذي يهدف إلى تحميلهما نفس المضمون .

الإنسان كزوج

إذا ناقشنا الاجتماع الطبيعي الوارد لغويا من زاوية إسلامية فان النتيجة أعلاه تتعزز وذلك من خلال الخلْق الوارد في القرآن الكريم . الخلق حسب القرآن لم يكن خلق أفراد وإنما خلق أزواج إذ تقول الآية :" وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى".[11] علما أن الخلق الأول كان فرادى ، وكما سنرى هناك خلق بعد خلق . لم يخلق الله فردا ذكرا وفردا أنثى وإنما زوجين : زوج ذكر وزوج أنثى . (كلمة زوج في اللغة تصف الذكر والأنثى على حد سواء). وقال تعالى : " ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ." [12] حتى أن خلق الزوجين كان من ذات النفس وذلك حسب الآية: " سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون".[13] وفي آية أخرى يقول لنا سبحانه وتعالى أن الخلق كان من نفس واحدة ثم جُعلت الأزواج . والجعل عبارة عن تغيير في الصيرورة أي تغيير فيما خلق أصلا . تقول الآية : " خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل من الأنعام ثمانية أزواج ...." [14] الزوج ليس فردا وإنما واحد مكمل لآخر . وبذلك يكون الزوج غير مهيأ لأن يعيش منفردا . ليس بإمكانه أن يفعل ذلك حسب خلقه الذي هو طبيعته . من المكن أن يعيش وحيدا بحيث لا يكون معه زوج لكنه لا يفقد أهليته الطبيعية والتي هي زوج . أما أن يكون فردا فذلك ينفي الأهلية الطبيعية التي يتحدث عنها القرآن إلا إذا كان معبرا عن وضع يوجد فيه المرء وليس حالة ذهنية

أو موقف معنوي. الأمر لا يقف عند الأزواج بل نعرف من القرآن الكـريم أن الله سبحانه جعل الناس شعوبا وقبائل. أي أن تجمع الأفراد على هيئة قبائل وشـعوب عبارة عن جعل إلهي إنه من صنع الله سبحانه وهو جعل ، أي عبارة عن فعل تلا عملية الخلق. يقول سبحانه مخاطبا الناس: " يا أيها الناس إنا خلقناكم مـن ذكـر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عنـد الله أتقـاكم إن الله علـيم خبير."[15] في هذه الآية ما يقطع بصورة باتة أن الإنسان لا يمكن أن يكـون فـردا لأنه بالخلق عبارة عن زوج وبالجعل عبارة عن عضو في قبيلة أو شعب. وفـي هذا ما يبين موقف الإسلام من طروحات تكون المجتمعات والتي اعتمـدت لـدى أغلبية الفلاسفة على مبدأ الحاجة أو الضرورة. تكـون المجتمعـات (الشـعوب والقبائل) في الإسلام طبيعي ، أي أنه عبارة عن أمر الهي بصـورة جعـل. وإذا كان للحاجة أو الضرورة دور فإنهما عبارة عن آلية أو أداة وليستا سببا.

القارئ لبعض المؤلفات الإسلامية يقع في نوع من الحيرة إذا حاول التـدقيق فـي المعاني. فمثلا يتحدث أحد المؤلفين عن حقوق الإنسان في الإسلام ويقول أن للفرد قيمة كبيرة في الإسلام ويستشهد على ذلك بالآية " من قتل نفسا بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا." [16] ويكرر كلمة فرد وبدون حذر في الخلط مع كلمات أخرى ، ومن الملاحظ أن كلمة نفس قد استعملت لتعني فردا بينما الفرق بينهما واسع. ويضيف نفس المؤلف حول تكون ما يسميه بالجماعة الإنسانية قائلاً بأن ذلك يعود إلى الحاجة بخاصة إلى لقمة الخبز.[17] واضح أن ما جاء في القرآن الكريم لا يؤيد هذا الكلام وأن مقولة المؤلف تتفق مع مقولات عدد من الفلاسفة مثل أرسطو.

الإنسان والبشر

قبل البحث في الإنسان كمفهوم لا بد من الإشارة إلى أهمية عدم الخلط بينه وبين البشر . في كثير من الأدبيات العربية الإسلامية منها وغير الإسلامية يحصل خلط بين كلمتي إنسان وبشر وتستعملان بصورة متبادلة لتعنيا نفس الشيء . حتى أن بعض الكتاب يستعملون كلمة بشرية لتعني إنسانية وبالعكس ، وبعضهم يصف المجتمع بالبشري أحيانا وبالإنساني أحيانا أخرى ودون أي تمييز في المعنى .

يخلط الدكتور محمد البهي بين تعبيري البشرية والإنسانية في كتابه الدين والحضارة الإنسانية . وكذلك يفعل رضوان السيد الذي يقول أن القرآن هو كتاب مرحلة جديدة في حياة البشرية .[18] أما الدكتور أمير عبد العزيز فيخلط مختلف التعبيرات الواردة في القرآن بعضها ببعض ويقول" وبعبارة أخرى فان الفطرة البشرية لهي جماع التركيب النفسي والروحي والعقلي والعضوي للإنسان وما يتمخض عن ذلك من أفرع وجزئيات أصيلة بعيدة عن كل مظاهر التكلف والاصطناع ." [19] أما عبد الكريم العثمان فيقول أن الغزالي استعمل ألفاظ النفس والقلب والروح والعقل للدلالة على ما يسميه النفس البشرية .[20]

من خلال قراءتي للقرآن لا يبدو أن هذا الخلط صحيح وهو بحاجة إلى مراجعة وتدقيق . كما سبق وأشرت ، القرآن ليس كتابا في الأدب يستعمل كلمات متنوعة بهدف إضفاء صفة جمالية تعجب القارئين . أنه كتاب حق يقدم الحقائق للقارئ بلغة دقيقة ولا يجوز إحلال كلمة مكان أخرى ولا يجوز تفسير كلمة واحدة بكلمة واحدة لأن في ذلك ترادف . الترادف غير وارد في القرآن وأرجح أنه غير وارد في اللغة أيضا . هناك كلمات تقترب معانيها من بعضها البعض وقد تكون متقاربة جدا لكنها لا تتطابق . حسب طاقتي على تفسير الأمور ضمن الحدود المعرفية التي تقيدني

أرى أن الآيات القرآنية تشير إلى اشتراك البشر والإنسان في الخلق والوجود المادي لهما ، لكن الإنسان يتعدى البشر في الأمور فوق المادية أو بالتحديد في القوة العقلانية . الآيات التي تبين هذا كثيرة لكنني سأكتفي هنا ببعضها.

تقول الآية : " وإذ قال ربك للملائكة أني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون"[21] في هذا إشارة واضحة إلى المادة التي خلق منها البشر وهي ذات المادة التي خلق منها الإنسان وذلك حسب الآية : " ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ." [22] لكن البشر الذي خلق من صلصال من حمأ مسنون خضع لعمليتين أخريين بعد الخلق وهما التسوية ونفخة الروح . وهذا واضح من الآية التي تتحدث عن أمر الله للملائكة بالسجود وتنص : "إذ قال ربك للملائكة أني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ".[23] أي أن القيام بالسجود كان مطلوباً بعد نفخة الروح . ويتضح لنا أن نفخة الروح هذه هي الحد الحاسم بين البشر والإنسان وذلك من خلال تبرير إبليس لعصيانه أمر الله . فقد قال إبليس حسب الآية الكريمة : "قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ".[24] أي أن احتجاج إبليس كان على مسألة الخلق قبل التسوية ونفخة الروح وليس بعدهما ، وقد عرف البشر بهذا الخلق فقط وليس بما تبع . أي أن إبليس لم يحتج على ما طرأ على البشر وإنما على ما سبق الفعلين وتجاهل الفعلين.

تشير آيات كثيرة إلى البشر كوجود مادي . تقول إحدى الآيات : "قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ..." [25] وتقول أخرى : "... ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ." [26] وتنص أخرى :"... قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا..." [27] وأخرى تقول: " فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا ..." [28] وغير ذلك آيات كثيرة

وهي تعني الهيكل الجسماني والتكوين المادي للبشر وما يتبع ذلك من حركة ونشاط يتعلقان بالحياة العضوية له. تؤيد عائشة عبد الرحمن هذا الاستنتاج وتفتتح كتابها بعبارة أن الإنسان في القرآن الكريم غير البشر. وتضيف أن البشرية هي المادة الآدمية التي تتحرك وتأكل.[29] بعبارة أخرى هي ذات التركيب العضوي وذات المتطلبات العضوية.

يشترك الإنسان مع البشر بهذا الوجود لأن البشر عبارة عن تجسيد مادي للإنسان، لكن الإنسان يتعداه إلى ما فوق النشاط الخاص بالحياة العضوية ليشمل العقلنة. ولهذا لا يخاطب الله عند إصدار أوامره وتعاليمه البشر وإنما يخاطب الناس أو المؤمنين، وعندما يتحدث القرآن عن الأمور المعنوية يذكر الإنسان وليس البشر. فمثلاً يصف القرآن الإنسان بالظلوم الكفار،[30] وهو يوصيه بالإحسان لوالديه.[31] ويوجه الخطاب للناس قائلاً: " يا أيها الناس اعبدوا ربكم ..."[32] ولا يقول في أي موقع أيها البشر. الخطاب العقلاني للناس والإنسان أما الحديث عن الخلق المادي يتناول البشر والإنسان كجسد. الصفات المعنوية موجهة إنسانياً وليس بشرياً، ومن الواضح في القرآن أن الخطاب الذي يتطلب الاستيعاب والفهم والإدراك موجه نحو العقل وليس نحو التركيب العضوي، وأن التعاليم موجهة لمن يعقلون ويتفكرون.

الإنسان

ما يهمنا في هذا البحث هو الإنسان الذي يتميز عن بقية أنواع المملكة الحيوانية والذي تحدد صفاته الآيات القرآنية كمفهوم مجرد. ووقوفنا عند مفهوم الإنسان في الإسلام ييسر علينا الانتقال إلى الإنسان كشخص ويسهل علينا المقارنة مع الفلسفات المختلفة. وإذا شئنا الخوض في جدل مع الفكر الفلسفي العالمي فإننا لا نستطيع

تحاشي هذا الموضوع أو القفز عنه بسبب أهميته في بنـــاء العلاقـــات الإنســـانية. تناولت الفلسفات العالمية الإنسان وركزت على القوى الداخلية التـــي تـــؤثر علـــى سلوكه وتخلق لديه أوضاعا نفسية مختلفة. وقد تطورت عبر الزمن العلـــوم التـــي تهتم بدراسة الإنسان وذلك ضمن الافتراض بأن تحسين وضـــع المـــرء المعرفـــي والنفسي يؤدي حتما إلى تقدم الإنسانية ككل. لا يهمل الإسلام الإنسان ولا يتجاهله وإنما يوجه خطابه إليه مفترضا التفاعل الإنساني الفكري والنفســـي مـــع التعـــاليم السماوية ، ويقدم كذلك الحلول أو بالأحرى مفاتيح الحلول للتغلب على ما يعتـــرض المرء من معضلات والسير على طريق التقدم الإنساني.

ثار جدل تاريخي حول طبيعة الإنسان: أهو خيّر أم شرير ، أم يحمل بذور الخيـــر والشر في آن واحد ؟ افترض أفلاطون أن الإنسان خير لأنه قوة عقلانية ، وإذا بدا عليه الشر فذلك لأن القوة الشهوانية تسيطر عليه ، أما لوك فـــافترض أن الإنســـان خير وذلك على عكس هوبز الذي قال أن الإنسان شرير. [35] انعكس كل افتراض على فلسفة صاحبه ، وعلى تصوره النظري لما يجب أن تكون عليه الدولة. وهذا شيء بدهي لأن من يفترض الخير في الإنسان يسعى إلى إقامة دولـــة ومؤسســـات بناء على هذا الافتراض ، ومن يفترض العكس فإن ترتيبه للأمور سيكون مختلفـــا تماما.

أما افتراض الإسلام حول الإنسان كمفهوم واضح من خلال استفسار الملائكة حول جعل الإنسان خليفة. تقول الآية الكريمة :" وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فـــي الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نســـبح بحمـــدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون. " [36] تشير الآية إلى أنـــه كـــان لـــدى الملائكة فكرة مسبقة حول هذا الذي سيُجعل خليفة وهو مفسد وسافك للـــدماء ، أي أنه شرير. لكن الملائكة تعرف الإنسان وهو إنسان قبل الجعل. هل أدخلت عملية

الجعل صفات على الإنسان غير تلك التي تعرفها الملائكة ؟ ذلك ، حسب الآيــة ، علمه عند الله . هل تعرض الإنسان بعد جعله خليفة إلى عملية تحول لم تكن تعرف الملائكة عنها شيئا ؟

في إطار هذه الفكرة المسبقة لدى الملائكة ، تتحدث آيات قرآنية عديدة عن صفات إنسانية تميل إلى الشر أو إلى السوء دون الخير . فالإنسان على سبيل المثال ظلوم كفار وذلك حسب الآية : " وآتاكم من كل ما ســألتموه ، وإن تعــدوا نعمــة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار ." [37] وهو ظلوم جهول حســب الآيــة :" إنــا عرضنا الأمانة على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان أنه كــان ظلوما جهولا ." [38] وهو كفور مبين :" وجعلوا له من عباده جــزءا إن الإنســان لكفور مبين ." [39] وهو عجول : " ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا" ... [40] وقتور أيضا : " قل لو أنتم تملكــون خــزائن رحمــة ربــي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا ." [41] ويحمل صفات غير حميدة منها : " إن الإنسان خلق هلوعا. إذا مسه الشر جزوعا. وإذا مسه الخيــر منوعــا ." [42] وكذلك" لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط ." [43] وغير ذلك من الصفات .

وإذا تفحصنا هذه الصفات نجد أنها تدخل تحت تصنيف الزيغ والطغيان . منها مــا ينقص أو يقصر عن حد الاعتدال كالتقتير وهو زيغ ، ومنها ما يتجاوز الاعتــدال مثل الظلم وهو طغيان . وهذه صفات ، حسب القرآن ، متأصلة في الإنسان وليست مجرد عادات مكتسبة . إنها تنعكس على العلاقات بين الناس ولا تنبثق عــن هــذه العلاقات . وجودها عبارة عن إقرار أو على الأقل إخبار إلهي من خلال القــرآن . ولهذا لم يكن غريبا أن تستفسر الملائكة عن هذا الذي أراد الله أن يجعله خليفة .

وقد أكد القرآن أن مسألة الزيغ والطغيان موجودة في السلوك الإنساني. تؤكد الآية: "كلا إن الإنسان ليطغى ...." [44] فكرة الطغيان ، وتؤكد الآية" إن الإنسان لفي خسر ." [45] فكرة الزيغ. وهذا يعني أن الإنسان ضمن هذه الصفات ليس معتدلا أو وسطيا. إن من يحمل هذه الصفات لا بد أن تكون حياته بعيدة عن الاطمئنان والهدوء. إنها صفات عدوان وجشع وخوف لا تبعث على الراحة والارتياح. وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة : " لقد خلقنا الإنسان في كبد ." [46] والكبد يعني تعب وشقاء الحياة المادية والمعنوية فنقول أن الإنسان يكابد الحياة ، وقد تعني أيضا محور الحركة أو وسطها مثلما نقول أن الشمس في كبد السماء. فإذا كان الإنسان وسط النشاطات المختلفة فهو مُتعَب وحياته صعبة بسبب ما يتحمل من مسؤوليات ، وهو مُتعَب أيضا إن كان مكابدا.

ربما تقودنا الفقرات المذكورة أعلاه إلى التأكد من تفسير الآية :" لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ." [47] قال أغلب المفسرين أنها تعني الاعتدال في القامة والتكوين الجسماني [48]. تؤيد الفقرات السابقة التفسير هذا والذي يحصر التقويم في الهيكل المادي دون السلوك. ولو شمل التفسير السلوك لحصل تناقض بين هذه الآية والآيات الأخرى. أي لو شمل تفسير الآية مسألة الاعتدال السلوكي لأصبحنا في حيرة كبيرة حول الصفات الأخرى التي وصف بها الإنسان.

لكن جنوح الإنسان نحو الطغيان والزيغ لا يعني أن الإنسان لا يعرف أو لا يعي ما يعمل. فالإنسان عاقل قادر على معرفة الغث من السمين والصحيح من الخطأ. فقد خاطبه الله سبحانه : " فلينظر الإنسان مم خلق ."[49] وخاطبه :" فلينظر الإنسان إلى طعامه ." [50] وهذا خطاب لعاقل من أجل أن يستخلص العبر والحكمة ويرتقي بمعارفه وعلومه ويرى أسرار ونواميس الكون. ولأن الإنسان عاقل فهو يتذكر ما يعمل حيث يقول سبحانه : " يوم يتذكر الإنسان ما سعى ."[51] وهو لا يتذكر

فحسب، بل هو قادر على وزن أعماله وإصدار حكم حولها . أنه يعرف ما يقوم به من عمل ومدى جنوح هذا العمل عن الصراط المستقيم . فتقول الآية :" بل الإنسان على نفسه بصيرة ." [52] أنه قادر على محاكمة نفسه (على الأقل محاكمة معرفية) .

التحول الجعْلي

إذا تأملنا الآية الكريمة :" ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون ." [53] نجد من خلال القراءة المتقاطعة للآيات الكريمة الواردة حول سجود الملائكة والتي سبق ذكرها وحول عملية الاستخلاف في الأرض أن جعل الخليفة مرتبط بجعل السمع والأبصار والأفئدة . أي أن عملية الجعل الاستخلاف ، أو تحويل صيرورة الإنسان من مجرد مفهوم أو وجود فوق أرضي إلى خليفة على الأرض قد رافقه تغيير في كينونته . فبدل أن يكون بشرا خضع للتسوية ونفخة الروح ، أصبح مع الجعل الجديد صاحب سمع وأبصار وأفئدة أخبر الله سبحانه أنه خلق بشرا ، ثم طلب من الملائكة السجود بعد اتخاذ إجرائين وهما التسوية ونفخة الروح . في هذه المرحلة لم يكن الإنسان مستخلفا بعد لأنه لم يكن قد خضع لعملية الجعل والتي هي إرادة إلهية تغييرية وليس مجرد حدث مرتبط بظروف معينة أو منبثق عنها . فالجعل كان إرادة إلهية تبعت استحقاق الإنسان لسجود الملائكة . فما هو الإجراء الإلهي الذي تعرض إليه الإنسان مما أدى إلى تغير في صيرورته أو تحوله الجعْلي ؟ من خلال القراءة المتأنية للقرآن لا يبدو أمامي كما أرى الآن إلا احتمال واحد لهذا الإجراء وهو السمع والأبصار والأفئدة .

أراد الله أن يجعل في الأرض خليفة وهو الإنسان ولكن بعد تعرضه لعملية جعل تؤهله لأن يكون خليفة ، وهي العملية التي لم تعلم عنها الملائكة عندما احتجت

بسبب ما توقعته من أعمال إفسادية يقوم بها الإنسان على الأرض . علمت الملائكة بمادة خلق الإنسان ودليلنا احتجاج إبليس على السجود ، وعلمت بنفخة الروح والتسوية لأن الله أخبرها بذلك ، وعلمت بالقدرة العقلية أو التعليمية والتمييز لأن الله علم آدم وأعلم آدم الملائكة بالأسماء . لكنها لم تعلم بفحوى أو ماهية العملية الآتية. وحيث أنها تتعلق بالأرض فمن المحتمل أنها مرتبطة بإرادة إلهية تتم على الأرض. فما الذي طرأ على الإنسان على الأرض ؟ يبدو أنه السمع والأبصار والأفئدة .

تؤيد هذا الاستنتاج الآية الكريمة : " قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ." [64] هنا ذكر سبحانه وتعالى الإنشاء وهو التنفيذ الفعلي الكمي . أنه ليس الخلق كما تذكر بعض المعاجم . [65] الخلق عبارة عن تصميم نموذجي والإنشاء عن تنفيذ كمي . هنا لا بد من التشديد على أنه لا يوجد مترادفات في القرآن الكريم وأنه لا يمكن استبدال كلمة أنشأ بخلَقَ أو تفسير الإنشاء بالخلق. فالله ، جل في علاه ، ليس إنسانا يتلاعب بالألفاظ ولا أديبا ينافس الأدباء في بديع الكلام . يمتاز القرآن الكريم بالدقة لأنه دستور للناس، وإذا لم يصر الدستور على الدقة فإنه يفشل في توحيد الناس حول ذات المفاهيم ومضامين الأفعال.

الإنشاء هو التنفيذ المادي الكمي لما تم خلقه مسبقا . المهندس مثلا يصمم بنايته ، أي يخلقها على الورق وقد يترجم هذا الخلق إلى أنموذج ليختبر صلاحيته ويعرف عيوبه . بعد ذلك يقوم المهندس أو الصانع بعملية الإنشاء ، أي بعملية الإنتاج الفعلي الملائم للحياة الإنسانية أو اللازم لها . بعبارة أخرى ، الإنشاء هو الإنتاج أو الظهور التكاثري للشيء . وإذا ترجمنا هذا المفهوم على الإنسان، ولله المثل الأعلى، فإنه يعني التكاثر الذي يحصل بالتوالد . وبما أن هذا التكاثر يتعلق بالحياة الدنيوية للإنسان فإنه يحصل على الأرض . فإذا كان الإنشاء متعلقا بالحياة على الأرض فان جعل السمع والأبصار والأفئدة قد حصل على الأرض . وحيث أن

الإنشاء مرتبط بالأرض فهذا الجعل مرتبط بالأرض أيضـــا . أي أن هــذا الجعــل مرتبط بعملية الاستخلاف الفعلية ، بمعنى أن الجعل الاستخلافي قــد تــزامن مــع الإنشاء الذي تلاه جعل السمع والأبصار والأفئدة .

يتأكد هذا التحليل الاستنتاجي بالآية الكريمة :" والله أخرجكم من بطون أمهــاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشــكرون ."[66] ارتبطــت عملية جعل السمع والأبصار والأفئدة هنا بالولادة الطبيعية وهي تليها مباشرة . هذا يعني أن عملية الإنشاء هي أشبه ما تكون حسب المصــطلحات الحديثــة بالإنتــاج الواسع النطاق بعدما يتم استكمال البنى التصميمية والنموذجية .

هذا ويستنتج من القرآن الكريم أن هذا الإنشاء يعود إلى النفْس ، بمعنى أن عمليــة الجعل الاستخلافي في الأرض هي عبارة عن خلق النفس (خلق لأنها بداية ظهور النفس) وهي بالذات عملية السمع والأبصار والأفئدة . إذ تقول الآية :" وهو الــذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقــوم يفقهــون ."[67] والإنشاء هذا خلق في نفس الوقت ، أو بداية ظهور النفس ، والدليل على ذلك هــو الآية : " هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليهــا ...."[68] أي أن الخلق والإنشاء في هذه الحالة لم يتتابعا . الجعل هو خلــق إضــافي . أنــه إضافة على شيء تم خلقه بحيث تتغير صيرورته . أنه خلق في الخلــق . فــالخلق الذي أدى إلى ظهور النفس هو عملية الجعل التي خضع لها الإنسان . اتبعت هــذه العملية المزدوجة بالجعل الزوجي والذي هو عبارة عن إرادة إلهية . وبهذا الجعــل الزوجي أصبح التكاثر أمرا طبيعيا وأصبح الإنسان جزءا من حياة طبيعية يشــترك فيها مع زوجه على الأقل .

توضح الآيات الكريمة كيف خلق الله خلقا في الخلق ثم أتبعه بالإنشاء : " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ." [59] تم التتابع هنا من الخلق إلى الإنشاء بِ ثم والتي تفيد التراخي وليس التتابع الفوري . أي أن وقتا قد مر أو فصل الخلق عن عملية الإنشاء .

لا يفهم من عملية الجعل هنا على أنه أصبح للإنسان عيون وآذان عضوية وأفئدة تضخ الدماء ، وإنما أصبحت لديه القدرة على التعامل الفعلي مع المحيط والبيئة . للإنسان آذان وعيون عضوية كما للكثير من الحيوانات ، لكن الآية لم تقصد الوجود العضوي بدليل تخصيص الخطاب وبُعد دلالته المعنوية . ومن حيث أن الإنسان عاقل ، فإن السمع والأبصار والأفئدة أصبحت وسائل وقنوات معرفية للعقل من أجل أن يتخذ القرار . وقد جمع القرآن الكريم بين هذه العوامل في عدد من الآيات مما يؤيد ارتباطها في النشاط الإنساني في الحياة العملية ، وكونها عوامل تكمل بعضها بعضا على أرض الواقع . فمثلا يرتبط الفقه بالأعين والآذان وذلك حسب قوله تعالى :" ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون ." [60] للأنعام أعين وآذان وقلوب لكنها تبصر وتسمع وتجري الدماء في عروقها . للإنسان الضال مثلها لكنه لا يفقه بدليل أن الآية تعني شيئا آخر غير الوجود المادي العضوي . من لا يفقه يبقى مبصرا وقادرا على السمع ، لكن سمعه وأبصاره وفؤاده لا تقوم بوظيفتها الفقهية التي قصدها القرآن الكريم . وقد أكد القرآن هذا بقوله :" ...صم بكم عمي فهم لا يعقلون ." [61] وبقوله :" إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ." [62] وغير ذلك من الآيات كثيرة

بمعنى آخر نقلت النفس الإنسان من عالم التجريد إلى الواقع العملي . والنفس عبارة عن مجس له حساسيته تجاه مختلف الأمور ينقل المعلومات للعقل الإنساني الذي يقرر في النهاية أي طريق يختار . أي أن النفس والإنسان على علاقة متبادلة إذا جاز لنا أن نقول أن النفس عبارة عن إنسان يتعامل مع موجودات وواقع وأن في الإنسان قوة تجريدية تستطيع أن ترتقي وتدرك الخير من الشر . وقد قال لنا سبحانه بأن النفس تصلح للقيام بمهمتها الواقعية قائلا :" ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها. "[63] لقد أتم الله النفس وغرس بها قوة استلهام العمل الخارج عن الصواب وقوة استلهام العمل الذي يقي من المعاصي والآثام . إنها تختار طريقها في الحياة العملية ، ومن ثم يأتي دور الإنسان يحلل ويستوعب نشاطها فيقرر كيف يقودها . فمن قادها بطريق الخير يكون قد طهرها ، أما من قادها نحو الشر يكون قد جرها إلى الهلاك. والنفس ومن يقودها واحد على الرغم من هذا التمييز الدقيق بينهما وذلك لأن الآية واضحة في قولها :" قد أفلح من زكاها ." أي أن من يعمل على تطهيرها يفلح هو ، وهو في النهاية الإنسان .

أضفت النفس تفاعلا إنسانيا حيويا على حياة الإنسان في الحياة الدنيا من حيث أنها وضعته في معترك متعدد الأبعاد ومتشعب النشاطات والاهتمامات والعلاقات . تطورت المشاعر والعواطف والانفعالات وما تشمله من فرح وحزن ، أمل ويأس ، تفاؤل وتشاؤم ، سرور وألم ، شوق وحنين وحب وكراهية وامتنان وقناعة وإيمان وكفر ، الخ . والنفس مع العقل الإنساني يعملان على تنظيم كل هذه التشابكات المعقدة في الحياة الدنيا .

الخلاصة

نستخلص من هذه المناقشة حول الإنسان أن هناك تدرجا مترابطا في الانبثاق الإنساني والنفسي . أو بمعنى آخر هناك مراحل تطورية قد مر بها الإنسان حتى انبثقت النفس ، ويمكن إجمالها بالتالي :

1- الإنسان مخلوق ولم يكن شيئا قبل الخلق . قال تعالى : " أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ." [64]

2- خلق الإنسان أولا من طين : " الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ." [65] وهذا الخلق كان في المرحلة البشرية التي ما زالت دون الإتمام أو التسوية ونفخة الروح .

3- تميز الإنسان عن باقي المخلوقات بما فيها الملائكة، وذلك بنفخة الروح . وفي هذه المرحلة علم الله آدم الأسماء كلها ، أي وضع فيه القدرة التمييزية.

4- جعل الإنسان خليفة بأن هيأه الله لحياة الدنيا فجعل له السمع والأبصار والأفئدة ، وهذا هو إنشاء النفس الإنسانية .

5- الخلق عبارة عن أزواج وليس أفرادا ، وجعل الناس شعوبا وقبائل .

لم تلغ أي مرحلة المرحلة التي سبقت وإنما بنت عليها . هناك القاعدة المادية البشرية التي أضفت عليها نفخة الروح صفة جديدة ، وتفاعلت المرحلتان مع مرحلة

تالية في واقع الحياة المادي. وهذه المراحل جميعها مرتبطة جدليا مع بعضها البعض لأن لكل مرحلة متطلباتها وتلقي بثقلها على الإنبثاق السلوكي للإنسان. أي عند مناقشتنا للإنسان الواحد لا نستطيع تجاوز متطلبات كل مرحلة وما تفرضه من مستلزمات. فالمرحلة المادية البشرية لها متطلبات يشترك فيها الإنسان والحيوان، وهي متطلبات يستوعبها العقل ويقيم علاقة جدلية معها، وتستوعبها النفس لتتعقد العلاقة الجدلية بعوامل متعددة، مضافا إليها أن الواحد ليس فردا وإنما مجرد عنصر متميز ولكن غير منفصل.

من هنا لا يحكم الإنسان بفردية الإنسان لأن علاقاته الجدلية الطبيعية تتجاوز الفردية الاجتماعية ولا تتمشى معها. فمجمل العلاقات هذه كفيلة بإخراج الواحد من عالمه الخاص ليكون ضمن إطار اجتماعي أوسع. وهذا ما أقره القرآن عندما قال بأن الله خلقنا شعوبا وقبائل. وإذا كان الحال كذلك فأين موقع الواحد أو من يمكن أن نسميه الشخص ؟ وكيف يتعامل معه الإسلام ؟ حتى نفهم ذلك لا بد من مناقشة المسائل السلوكية التي يعتبرها الإسلام هدفه التوجيهي والتي يتحمل مسؤوليتها الإنسان. لكن من المهم أن نعي أن هناك مقومات خلقية تنعكس على السلوك الإنساني ولا يستطيع المرء تجاوزها لأنه خلق حسبها أو فطر عليها. أي أن أي بحث في النظام الإسلامي لا يستطيع تجاوز هذا الخلق، وإلا فإنه يقع في أخطاء علمية جوهرية.

الهوامش

1- عبد الحميد أبو سليمان ، **أزمة العقل المسلم** ، ط1 ، ص50 .
2- عمر عبيد حسنة ، **مراجعات في الفكر والدعوة والحركة** ، ص20 .
3- محمد أركون ، **تاريخية الفكر العربي الإسلامي** ، ص ص24 ــ 25 .
4- زكي نجيب محمود ، **تجديد الفكر العربي** ، ط5 ، ص223 .
5- الأنعام ،94 .
6- سبأ، 46 .
7- مريم، 80 .
8- مريم، 95 .
9- أمير عبد العزيز، **الإنسان في الإسلام**، ص11.
10- **المصباح المنير**، ص31.
11- النجم، 45.
12- الذاريات، 49.
13- يس، 36.
14- الزمر، 6.
15- الحجرات، 13.
16- عبد الغني عبود، **ديناميات المجتمع الإسلامي**، ص ص 111ــ112.
17- **م س**، ص ص 23ــ25.
18- رضوان السيد، **مفاهيم الجماعات في الإسلام**، ص21.
19- أمير عبد العزيز، **م س**، ص27.
20- عبد الكريم العثمان، **الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص**، ص ص 53-58.
21- الحجر، 28.

22- الحجر، 26.

23- ص، 71-72.

24- الحجر، 33.

25- آل عمران، 47.

26- المؤمنون ، 33.

27- إبراهيم، 10.

28- هود، 27.

29- عائشة عبد الرحمن، **القرآن وقضايا الإنسان**، ص15.

30- إبراهيم، 34.

31- الأحقاف، 15.

32- البقرة، 21.

33- عبد الستار قاسم، **الفلسفة السياسية التقليدية**، ص ص 54ـ57.

34- M. Harman, **op. Cit**. pp. 246-248.

35- **Ibid**, pp. 222-224.

36- البقرة، 30.

37- إبراهيم، 34.

38- الأحزاب، 72.

39- الزخرف، 15.

40- الإسراء، 11.

41- الإسراء، 100.

42- المعارج، 19ـ20.

43- فصلت، 49.

44- العلق، 6.

45- العصر، 2.

46- البلد، 4.

47- التين، 4.

48- **تفسير ابن كثير**، المجلد الثالث، ص65.

49- الطارق، 5.

50- عبس، 24.

51- النازعات، 35.

52- القيامة، 10.

53- السجدة، 9.

54- الملك، 23.

55- أنظر معجم **المنجد** .

56- النحل، 78.

57- الأنعام، 98.

58- الأعراف، 189.

59- المؤمنون، 12ـ14.

60- الأعراف، 179.

61- البقرة، 171.

62- الأنفال، 22.

63- الشمس، 7ـ10.

64- مريم، 67.

65- السجدة، 7.

الفصل الثالث

حيوية الإنسان المسلم

مع هذا الترتيب الخلقي الوارد في الفصل السابق أوحى الله بتعاليمه للناس لتكون هدى لهم تسهل عليهم السير على طريق الحق أو الصراط المستقيم. عملية إرسال الوحي وبعث الرسل جاءت منسجمة تماماً مع هذا الخلق بسبب قدرة التمييز الخلقية لدى الإنسان وقدرته على التعلم والاختيار . لم يكن الإنسان مجرد حيوان بهيمي كي يغرس فيه السلوك عضوياً ، وإنما جاء متميزاً وأفسح الله سبحانه المجال لهذه القدرة التي ميزه بها أن تجد طريقها نحو الممارسة سواء على المستوى النظري أو العملي. وهذا الشيء يعكس العقلانية، ولله المثل الأعلى، في ترتيب الأمور وتنسيقها بطريقة لا تضارب فيها ولا تعارض. فلا يعقل أن يخلق الله قوة ويعطلها أو يحرم مخلوقاً من قوة ولا يعوضه عنها. ولهذا قال سبحانه :" بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون" [1] وقال :" بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم"[2]

لم تكن التعاليم السماوية موجهة إلى قوم معين خاصة، أو إلى قبيلة معينة، وإنما للناس جميعاً حيث قال سبحانه: "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ."[3] وهي لا تراعي عادات قوم معين أو تقاليدهم، وإنما نزلت كتعاليم صالحة لكل الأقوام والشعوب والقبائل، ولم توح لتخالف خلق الله وإنما لتكون منسجمة معها. أي أنها ليست حكراً على قوم ولا تطلب من الإنسان الالتزام بسلوك قد يخالف مقوماته الخلقية، وإنما يتوافق الخلقي مع المتطلب

السلوكي. فلو راعت التعاليم تقاليد قوم لما كانت في الأساس صالحة لكل الناس، ولو خالف المتطلب السلوكي المقوم الخلقي لوقع الإنسان في صراع داخلي أفقده توازنه وجعله يتخبط على الأقل من الناحية النفسية. وإذا حصل العكس بأن خالف الإنسان في سلوكه التعاليم السماوية والتي هي منسجمة مع المقومات الخلقية فإنه يقع في مشكلة. فمثلاً قال تعالى: "الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا..." [4] وقال أيضاً: "فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى. وكذب بالحسنى. فسنيسره للعسرى" [6] إن من يكذب بالتعاليم لا يكون منسجماً مع مقوماته التي خلقه الله حسبها، وبالتالي لا بد إلا أن يعاني نفسياً ومادياً من التضارب أو عدم الانسجام.

بما أن التعاليم موجهة للناس كافة ، فإنه ليس بالإمكان تفسيرها بناء على تجربة قوم معينين، والقصد هنا تجربة العرب. كون الرسالة عالمية فإنه من الممكن الاسترشاد بالتجربة الخاصة عند التفسير ، لكن الحكم الإلهي يبقى حكما غير مشروط أو محصور بتجربة معينة. وبما أن تجربة قوم معين تختلف عن تجارب أقوام أخرى، فإنه من الإجحاف جعل التجربة الخاصة أرضية لفهم قطعي للتعاليم السماوية. قال تعالى :" قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ." [6] أي أن القرآن يلزمنا بالنظر إلى التعاليم كتعاليم عالمية تنطبق على الإنسان في كل مكان ، وهي تقيم ميزانا للإنسان يحقق من خلاله التوازن في مختلف نشاطاته الحياتية السلوكية منها والعضوية التي يمكن التعامل معها إراديا ، أي يمكن أن تضبط وتنظم.

يقودنا هذا إلى مناقشة التركيز الحاصل على تجربة العرب في الجزيرة العربية في تفسير القرآن . لا شك أن التجربة والمناسبة المقترنة بنزول الآية مهمة ولكن ليس للقطع بالتفسير . أنه من المهم مراجعة هذا النمط في التفسير لأنه يحمل في طياته افتراضا يصعب قبوله وهو أن الله كان مقيدا بمناسبات لكي ينزل القرآن. يشكل هذا الافتراض اختراقا لأسس الإيمان والعقيدة . ربما يكون الأمر والذي أعتقد أنه الصواب ، أن حكمة الله قد اقتضت نزول آية في مناسبة معينة وذلك لتسهيل استيعابها وفهمها من قبل العرب . وجود المناسبة وطرح الحل للمشكلة القائمة يسهلان عملية وضع القاعدة النظرية . لكن هذا لا يعني بتاتا أن القاعدة الشرعية أو التعاليم السماوية قد ارتبطت بالمناسبة أو أنها تأخذ معناها منها. القاعدة هي الأساس والمناسبة لم تكن إلا أداة القاعدة في إيصال المعلومة بوضوح إلى الناس . ولا يجوز تفسير القاعدة بأداتها على الرغم من أن الأداة تبقى ذات طابع استرشادي . من شأن التقييد بمناسبة أن يمس العقيدة الإسلامية القائمة على أن الله خالق كل شيء ومبدعه ، وأن كل شيء يسبح باسم الله وبحمده . فهل يمكن أن ينعكس الوضع بحيث يتبع المبدع الأداة ويصمم التعاليم حسبها ؟ هذا بحاجة إلى تفكير عميق وتدقيق .

بالطبع لا أتحدث هنا عن نوايا وعن قناعات نظرية وإنما أتحدث عن منهجية وعن الفكر الذي تنطوي عليه . هل تتفق المنهجية مع القناعة الإيمانية أم تختلف معها ؟ هل تؤكدها أم تنفيها ؟ وهل تنسجم مع الافتراضات الأساسية التي ينطلق منها الفكر؟

ربما تشكل قواعد التفسير عنصرا آخر في عدم حركية فكر المسلمين . إذا كان التفسير الإسلامي للقرآن الكريم أو جزء منه مستند على مناسبات محددة فماذا يُترك للاجتهاد ؟ المناسبة عبارة عن تاريخ ومهما حاول أن يضيف المرء من تفصيلات

إلى تجربة تاريخية سابقة فإنه يبقى ضمن إطار مقيد يفقده مرونة الحركة مما ينعكس على الفكر الإسلامي. فإذا كانت لدى المسلم القناعة بأن القرآن الكريم هو قرآن مجيد في لوح محفوظ وأنه يحتوي نواميس الطبيعة ونواميس السلوك الاجتماعي والإنساني فكيف له أن يُخضع التفسير القرآني لمناسبة معينة محددة ؟ ألا يوجد هناك تناقض بين الإيمان بالفكرة الإلهية المطلقة وبين فكرة تقييد هذه الفكرة بحدث تاريخي معين ؟ لا شك أن التناقض قائم وواضح. على الرغم من حساسية طرح هذا الموضوع في أجواء لا تتميز برؤية حيوية أو"ديناميكية" للأمور إلا أنني أدعو إلى تدبر المسألة علّ في التدبر خير.

من المهم في هذا الصدد أن يدرك المسلمون أن تجارب الأمم تختلف عن بعضها البعض وكذلك الثقافات ، وأن ما انطبق أو ينطبق على ثقافة معينة لا ينطبق بالضرورة على الثقافات الأخرى ، وما هو مقبول في مجتمع معين ليس بالضرورة مقبولا في مجتمعات أخرى. هذا يعني أن التعاليم السماوية لم تنزل لتلائم تجربة خاصة أو تجربة أمة بعينها وإنما نزلت للناس كافة معبرة عن حقيقة إلهية مطلقة وغير مقيدة بأي طروحات نسبية. بمعنى أن التعاليم السماوية تنسحب على السلوك الإنساني ككل وليس على سلوك العرب ، وعند دراستها يعمل الدارس على عدم حصرها ضمن قالبها العربي النسبي الذي لا يمكن تعميمه على الأمم أو الأقوام الأخرى. هذه نقطة مركزية من الضروري البحث فيها ومراعاتها في البحث الإسلامي بصورة عامة.

فحتى تكتمل الصورة، يعمل هذا الفصل على البحث في أسس السلوك الإنساني حسب التعاليم الإسلامية ، أو بالأحرى سلوك الإنسان المسلم في حياته العملية. رأينا المقومات الخلقية في الفصل السابق ، والآن نحاول أن نرى المقومات السلوكية مما يجعل من المكن وضع صورة عامة حول القضايا السياسية الهامة

التي تخص حياة المسلم والجماعة الإسلامية في آن واحد مثل التعددية وحرية التعبير ، الخ. الموقف الإسلامي من مختلف القضايا السياسية ينبثق من موقف شمولي بحيث تتشابك فيه مختلف القضايا في نسيج متكامل ، ولا يمكن فصل مسألة معينة عن مجمل الفكرة التي يقوم عليها الإسلام. وعليه فان هذا الفصل يفرد نقاشا حول قضايا أساسية وهي المسؤولية والالتزام والتقوى والتي تنظم النشاط على المستويين الشخصي والعام.

المسؤولية

تقع المسؤولية في الإسلام على الإنسان أو النفس وهما يؤولان إلى واحد كما أوضحت سالفا. والمسؤولية محددة في الإسلام بوضوح وهي مرتبطة بالحياة الآخرة. يحرص الإسلام على الحياة الآخرة وتحقيق الفوز العظيم ، أي دخول الجنة ، ويرشد الإنسان بصورة مكثفة ومتواصلة حول تلك الأعمال والنشاطات التي تقربه من الهدف وتبعده عن الجحيم. مصير الإنسان الواحد في الآخرة يتحدد بعد حساب خاص به يتم من خلاله مواجهته بما عمل من صالحات ومن سيئات. بمعنى أن الإنسان الواحد يتحمل وحده مسؤولية عمله في الحياة الآخرة. قال تعالى: " كل نفس بما كسبت رهينة ." [7] وقال :" لا تزر وازرة وزر أخرى. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى. ثم يجزاه الجزاء الأوفى"[8] ولا يتحمل أحد أخطاء أحد آخر ، وكل واحد عليه أن يواجه مصيره بنفسه دون إسقاط على الآخرين "... ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ." [9] وتقول الآية :" لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ...." [10] وتقول آية أخرى:"ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما." [11].

ما دام الحساب يوم القيامة يقوم على أساس شخصي فان ممارسة الشخصية في الحياة الدنيا تبقى حاسمة وذلك لأن الحساب الشخصي يفترض أن الشخص مسؤول عن عمله. فإذا ذاب الشخص في جماعة أو أجبر على ذلك فإنه يتحرر من مسؤوليته الذاتية ويصبح أعضاء الجماعة كجماعة أو الذين أجبروه على الذوبان موضوع الحساب. وبما أن الله يحاسب كل نفس على عملها باعتبارها مسؤولة عن كل ما تقوم به فإنه لا يعقل أن يذيب الإسلام الإنسان الواحد في جماعة أو يجبره على ذلك. قال تعالى :" وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا. إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا." [12].

نلاحظ هنا عملية التشابك والتكامل الخلقي والسلوكي. ما دام الإنسان عاقلا فهو يتحمل مسؤولية عمله بالضبط كما تحمله آدم عليه السلام قبل الاستخلاف على الأرض. علمه الله وحذره من الشجرة ، لكنه اختار أن يقربها فألزمه الله النتيجة. أعطاه الله العلم والقدرة على التمييز فسقط التسيير ولم يعد للإنسان حجة. هنا يقترن القَدَر بقدرة الإنسان على الاختيار التي وجدت في الإنسان بقدر. لقد خلق الله العقل الإنساني فكان خلقه قدرا لا يمكن تجاوزه من قبل الإنسان أو إلغاؤه أن إهماله. أنه جزء من التكوين الإنساني الذي يورث عضويا ولا سيطرة للإنسان على وجوده. ضمن هذا القدر تكمن قدرة الإنسان على الاختيار والتمييز ، وهو حر ضمنها دون أن يكون قادرا على النفاذ منها. أي أن الحرية ليست مطلقة ولكن ضمن الحرية التي أودعها الله فيه ، وضمنها أيضا تتحدد مسؤولية الإنسان. فالمسؤولية منبثقة عن قدر الله في خلق العقل الإنساني ومحددة بها أيضا لأنه لا نفاذ خارج القدر.

يشكل هذا الرد الإسلامي على الجبرية والقدرية المتعلقة بسلوك الإنسان. الإنسان مسؤول بقدر ما هو حر ، ومجبر بقدر ما هو مقيد. فإذا كانت أعماله خاضعة

باستمرار لإرادة الله وقدره فإنه ليس مسؤولا عن شيء ولا حساب عليه يتبعه عقاب أو ثواب . فعندما يكون غير مسؤول تنتفي مسؤوليته ويتحول إلى مجرد كائن حي شبيه بالكائنات الحية الأخرى . أما إذا شاء شخص أن يقول أن كل شيء خاضع لإرادة الله بمعنى أن حرية الإنسان عبارة عن إرادة إلهية فهذا ينسجم مع الآيات القرآنية من حيث أن الله رتب وضع الإنسان بطريقة تكون لديه حرية القرار. أما إذا قال ذلك بمعنى أن الإرادة تتدخل في كل شيء فان في قوله مخالفة لما أقره الله سبحانه :" وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى ." [13]

يخرج القول بالجبرية عن التعاليم الإسلامية ويلقي بظل ثقيل على الدعوة الإسلامية وفحوى الرسالة . إذا كان الإنسان مجبرا والإرادة الإلهية تتدخل في كل صغيرة وكبيرة فما فائدة القول بصلاح الدعوة لكل زمان ومكان ، وما فائدة نزول الوحي ؟ الجبرية تنفي ضرورة نزول الوحي وتنفي صلاح الدعوة لأن من يتحكم بسلوك الإنسان هو الله . فإن ضل الإنسان عن سواء السبيل لا مسؤولية عليه ، وإن اهتدى لا فضل له . فبأي حق عندها يكون الرسول عليه السلام بشيرا ونذيرا ، وبماذا بإمكانه أن يبشر وينذر ؟ ولماذا يكون هناك ثواب وعقاب وجنة ونار ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فإنه لا فرق بين مؤمن وكافر ، بين من عمل صالحا أو من أساء، أو بين من تبع التعاليم أو أغفلها . هذا الطرح الجبري يريح الذين لا يؤمنون لأنه لا يضع عليهم أي وزر . قال تعالى :" سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون." [14]. وقال:" وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ." [15]

يعزز الإسلام مفهومه لمسؤولية الإنسان بتحريره من كل أنواع العبودية والتسلط سواء كان ذلك بشكل مادي أو معنوي . لا يدين المرء في الإسلام إلا لله ولا يعبد إلا الله :" قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد"[16] فإذا كان له أن يطيع فإن الطاعة واجبة لأوامر الله لأنها هي الحق والمعبر الوحيد عن الحقيقة . عدا ذلك فإن الإنسان يطوع نفسه للعبودية ويتحول إلى عبد ، وهو بالتالي مسؤول عن تسخير نفسه للآخرين ويستحق على ذلك العقاب. ولهذا يأمر الله بأن لا يذل الإنسان لأحد وألا يخضع لتهديد أو وعيد . تأمرنا الآية الكريمة :" ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما." [17] وقال: "فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ." [18] لا أحد يستطيع أن يهيمن على الذين يؤمنون وبالتالي ينتفي الخوف من الآخرين . الحياة والممات بيد الله والمؤمن لا يخضع لأحد مهما كان جبروته أو طغيانه . يقول الله تعالى :"وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ...." [19] ينجي الإيمان بالله الإنسان من التذلل ويبعده عن الاستعباد .

يحرر الإسلام الإنسان أيضا في مسألة العيش حيث يؤكد أن الرزق على الله ، وأن أحدا لا يستطيع أن يمنع رزق أحد أو يقتله جوعا . الرزق بيد الله حسب الآية :" والله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ...." [20] وتقول الآية :" وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ." [21] لكن هذا لا يعني التواكل والكسل والظن بأن السماء تمطر طعاما بدون جهد أن تعب . قال تعالى : " هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور." [22] وقال :" وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ." [23]

هذا يعني أن الإنسان المؤمن مأمور من الله سبحانه وتعالى بألا يكون رهينة لشيء أو حبيسا للقمة الخبز على حساب تطبيق التعاليم السماوية . خضوع المؤمن للأجر المادي أو الراتب عبارة عن استعباد يتنافى مع الإسلام . حتى أن الإسلام أصر على تقرير بأن سيدنا محمد عليه السلام عبارة عن واحد من الرسل حتى لا يشعر أحد من المسلمين أنه مدين أو عبد له . فيقول القرآن الكريم :" وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أن قتل انقلبتم على أعقابكم ...." [24] ويخاطب الرسول قائلا :" ليس لك من الأمر شيء ...." [25] ويأمره بأن يتبنى الموقف التالي :" قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا . قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا . قل إني لن يجيرني من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملتحدا ." [26] ينطبق هذا على كل الرسل بمن فيهم عيسى بن مريم الذي قال بشأنه القرآن : " إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل ." [27]

تطويع الإنسان لنفسه كي تذوب أو لتكون عبدا مخالف لأوامر الله ، وقبوله بالذل والاضطهاد والخضوع عبارة عن نقص في الإيمان وعدم قناعة بأن الله مالك كل شيء وإرادته غالبة على إرادة البشر . وهذا ما يسميه سيد قطب بالتحرير الوجداني للإنسان . الإسلام يحرر الوجدان الإنساني مما يوفر الأمن النفسي لكل إنسان . [28] وفي هذا تأكيد على مسؤولية الإنسان وحقه في الحصول على الأمن سواء كان ماديا أن معنويا ، والتخلي عن هذا الحق عبارة عن تمرد على أمر إلهي. المسلم يتخلى عن حقه ويطوع نفسه لغيره إن تكاسل واعتمد في معيشته وعيشه على الآخرين وما يوفرونه له من عمل أو معونة أو مساعدة . أنه مأمور بأن يشمر عن ساعديه ويتعب من أجل أن يكون حرا وأن يبقى كذلك ، وإلا فإنه يقع تحت عبودية تزحف على عبوديته لله وتؤثر حتما على التزامه بالتعاليم وأحكام الشريعة . ولهذا قال عليه السلام :" اليد العليا خير من اليد السفلى ...." [29] وقال : " لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه." [30] ولهذا

يعتبر الاعتماد على الغير عملا غير إسلامي وينتهك قواعد الحرية وتوجه المسلم إلى الله. ومن اعتمد في أمنه على غيره لا أمن له بسبب إمكانية تعرضه في أي وقت لمزاجية من يوفر له الطعام أو الحماية.

الحرية تشمل أيضا حرية الاعتقاد. للإنسان أن يختار بين الإيمان والكفر، بين الالتزام بالتعاليم السماوية وعدم الالتزام." وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ...." [31] وقال: " لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ...." [32] وكل واحد يتحمل مسؤولية اختياره يوم القيامة:" فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى" [33] على أية حال، سأعود إلى هذا الموضوع بتفصيل فيما بعد.

الاغتراب

المسؤولية هي نقيض الاغتراب الذي يعتبر مشكلة إنسانية كبيرة عانى منها الإنسان عبر الأزمان وفي مختلف الأماكن. أنه لا يعني مجرد استلاب للحرية، وإنما يعني أيضا عدم وجود مسؤولية يفعّل الإنسان طاقته من خلالها فيستطيع أن يرى نفسه يتبلور على أرض الواقع. فقد يحصل امرؤ على حرية شخصية لكنه يبقى بعيدا عن موقع المسؤولية أو عن أن يكون مسؤولا عن شيء. وهذه ليست حرية متكاملة وإنما تبقى ناقصة بسبب محدودية المجال الذي يمكن أن يمارس الإنسان فيه حريته. وكما سنرى فيما بعد يتجاوز الإسلام مسألة الحرية الشخصية المحدودة ليضع المسلم مسؤولا عن تحقيق أهداف عامة إذا أراد لإسلامه أن يكون متكاملا. بمعنى أن التعاليم التي يعتبر المسلم مسؤولا عن القيام بها تشمل نواحي شخصية

وأخرى عامة ، حتى أن النواحي الشخصية لا يتم تحقيقها إلا من خـــلال الأعمـــال العامة .

المسؤولية في الإسلام تدفع المسلم إلى أن يعبر عن قدراته وطاقاته وذلك من خلال الإصرار على تطبيق التعاليم والشرائع والأحكام ، وهو سيحاسب على ذلـــك يـــوم القيامة ، ونتيجته ستكون متناسبة مع ما بذله من جهد . قال تعالى :" فمـــن يعمـــل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ." [34] وبما أن التعبير عـــن القدرات والطاقات هو الذي يشعر الإنسان بذاته ويبين له مـــدى اســـتطاعته علـــى تحقيق الأهداف والأبعاد التي يمكنه أن يصلها بقوته وذكائه ومهارته ، فإن الإسلام يعمل على انبثاق المرء إلى أقصى قواه بحيث يجد نفسه باستمرار ويتأكد دائما من ملكيته لذاته وانطلاقه بها في عمل مشارك مع الآخرين يعود بالنفع عليـــه وعلـــى غيره . الانبثاق هذا عبارة عن انطلاق إيماني أولا ويترجم إلى واقع عملـــي مـــن خلال التحرر من كل القيود الشهوانية الذاتية والمادية والخارجيـــة ومـــن الانقيـــاد الفكري والعقلي . يتحرر الإنسان شهوانيا من خـــلال التطبيـــق العملـــي للتعـــاليم الحياتية، ومن الانقياد الفكري الذي يعطل الوعي من خلال النظر والتفكر والتـــدبر في الخلق الذي هو الواقع المادي ، ومن القوى الخارجية بالإعداد المستمر .

لقد أتى فلاسفة عدة عبر التاريخ على ذكر الاغتراب واعتبروه عدوا لدودا للإنسان، وكان كارل ماركس من أشد من ركزوا على المسألة وذلك في **المخطوطة الفلسفية الاقتصادية.** أرجع ماركس الاغتراب الإنساني إلى الاســـتغلال الاقتصـــادي الـــذي يسحق العامل ويشل قدراته على اتخاذ القرار ويستهلك طاقته التي يمكن أن يشارك بها مع الآخرين من أجل البناء . بسبب الاستغلال يصبح الإنسان غريبا في وطنـــه وفي بيته ، ويتحول إلى أداة تنتج أسباب قهرها وقمعها . [35] أما هيجـــل فقـــال أن الإنسان يبقى تحت وطأة الاغتراب ما لم يحقق دولة القومية التي تنبثق معها حرية

الإنسان . [36] أما الإسلام فلم يحدد مرحلة تاريخيـــة لخـــلاص الإنســـان ، وإنمـــا اعتبرها حالة ذهنية أولا متعلقة بالإيمان تتم ترجمتها ثانيا إلى واقع على الأرض . وعلى أرض الواقع يمارس المسلمون حياة مشاركة كما ســـنرى ، تقـــودهم عبـــر اجتهاداتهم إلى اختيار ما هو مناسب لهم حسب ظـــروف الزمـــان والمكـــان ودون انتهاك الأحكام الشرعية . ومن هنا يتم فهم المسؤولية في الإسلام من حيـــث أنهـــا ليست مجرد حرية وإنما ممارسة عملية تمتزج فيها الأمور الشخصية والعامة فـــي جدل تكاملي يقود إلى تقدم المسلم كشخص والأمة معا وفي آن واحـــد ، أي هـــي وحدة الذاتي والموضوعي كما سيتم توضيحه لاحقا .

تفترض المسؤولية في الإسلام أن الإنسان يجب أن يكون ملك نفسه ممارسا قدراته إلى ملئها دون حواجز أو إعاقات . الإنسان لا يكون مسؤولا إلا إذا كان هو نفســـه ومعبرا عن نفسه دون قهر أو قسر . ويدرك الإسلام محاولات الإنسان الســـيطرة على أخيه الإنسان ويدرك أيضا إمكانية خضوع الإنسان لضعفه أو لظروف صعبة تجبره أو تقوده إلى تطويع نفسه . ولذلك أصر على الإيمان القـــوي الـــذي يشـــكل الدعامة الأساسية في رفض الخضوع لغير الله والمحافظة على الاستقلالية . تمسك المسلم بذاته وامتلاكه لها يقوده إلى الفوز حتى لو كلفه ذلك التضحيات والمعاناة في الحياة الدنيا .

يوفر الإسلام أجواء تحمل المسؤولية التي تقضي على الاغتـــراب وواجـــب علـــى المسلم ألا يتخلى عن مسؤوليته . فإذا قال المسلم أنه أصبح مضطرا للتخلـــي عـــن موقف بسبب ضغط من أي نوع فإن قوله لا ينسجم مع المسؤولية التي أوكلت إليه، ويطوع نفسه لغيره ويصبح مغتربا عن نفسه . أنه بخطوته هذه يخسر من ناحيتين: ناحية الحياة الدنيا التي يصبح فيها أداة للغير وناحية الحياة الآخرة .

الالتزام

المسؤولية تحمل في طياتها الالتزام. من تقع على عاتقه مسؤولية من أي نـــوع لا بد إلا أن يكون ملتزما بالقيام ببعض الأمور التي تعكس مدى تحمله لمســؤوليته. المسؤولية لا تأتي من فراغ ولا تعقد على غير قاعدة أو أساس. المســؤول فـــي الدولة يتحمل مسؤوليته بناء على منح سلطات من الشعب أو تخويل أو تفــويض ، وهو يحاسب على هذه المسؤولية. وحتى يؤدي مسؤوليته ، عليه أن يلتزم بقواعــد وأسس مشمولة صراحة أو ضمنا بالمنح أو التخويل أو التفويض. والأب يتحمــل مسؤوليته تجاه أبنائه بحكم العلاقة الطبيعية وهو ملتزم بقواعد موجودة ضمنا فـــي مبدأ أو جوهر العلاقة الطبيعية. وهكذا الأمر بالنسبة لبنّاء يتعاقد مع شخص علـــى بناء دار ، أو مدرس يقوم على مهمة تدريس التلاميذ في المدرسة، الخ.

الإنسان مسؤول أمام الله بفضل التسوية ونفخة الروح وما صاحبهما من تعلــيم آدم الأسماء كلها ، أو من انبثاق العقل الإنساني القادر على التعلم والتمييز ، وبفضــل الاستخلاف في الأرض المرافق لعملية الجعل وبفضل الإنشاء. أنه يتحمل مبــادئ قوى التمييز التي تشمل التعقل والتفكر والتدبر والتبصر وقوى التدبير القادرة على الانسجام عمليا مع التقوى والحكمة والصراط المستقيم. الإنســان مســؤول لأنــه بالطبيعة ، أي بالخلق ، مؤهل بمستلزمات المســؤولية. لقــد أعطــاه الله القــوى المتلائمة مع قدرة الاختيار وحريته مما دفعه لأن يحمل الأمانة. هــذه المســؤولية تتضمن الالتزام. فحتى يكون الإنسان قادرا على اجتياز اختبار المسؤولية فإنه من المتوقع أن يلتزم بقواعد تؤدي في النهاية إلى تحقيق هــذه المســؤولية أو أدائهــا بالشكل السليم.

الالتزام الإسلامي ليس عشوائيا أو مزاجيا وإنما يستند على أساس وهو الحق. المسلم ملتزم في كل نشاطاته وأعماله بالعمل المنسجم مع التعاليم السماوية، ومن حيث أن هذه التعاليم تقول الحق وتعمل على الاعتراف به إيمانا وعملا فإن المسلم يلتزم بهذا الحق ويعمل على تثبيته كأساس للسلوك الإنساني العام والخاص. وإذا ابتعد الالتزام عن الحق فإن المسلم يقع في تناقض من شأنه أن ينفي الإيمان ويحوله إلى مجرد طرح نظري.

مراتب الحق

الإسلام عبارة عن الحق الذي يدحض الباطل ، ولا بد أن قواعد الالتزام متمشية مع هذا المبدأ العام. فالإسلام يهدي الناس إلى الطريق القويم ، إلى الحق ، ويبعدهم عن الباطل. وحتى يكون المسلم ملتزما لا بد أن يتوافق عقيدة وفكرا وعملا مع الحق فيعكسه على تصرفاته في مواجهة الباطل. أي أن قواعد الالتزام متناسبة أو متوازية مع قواعد الحق أو درجاته. وحتى يكون بمقدورنا تحديد هذه القواعد فإنه من الأسلم أولا أن نفهم معنى الحق في الإسلام ومراتبه.

لا يوجد في القرآن ما يفسر الحق غير كلمة الحق ذاتها ، ولهذا لم يقل سبحانه وتعالى ليثبت الحق أو ليبرهن عليه ، وإنما قال: ليحق الحق. الحق هو الحقيقة المطلقة ضمن حيزها الزماني والمكاني ، وهي حقيقة مطلقة وفوق الزمان والمكان بالنسبة للذات الإلهية. ولهذا تتعدد مفاهيم الإسلام للحق حسب منطلق الحديث أو الفعل. وقد استطعت من خلال قراءة القرآن الكريم ، وضمن حدودي المعرفية ، أن أحدد أربعة مفاهيم مترابطة ومتسلسلة بتدرج مرتبي. تتلخص هذه المفاهيم فيما يلي:

أولا : الحق هو الله سبحانه وتعالى وهو مصدر كل حق على الإطلاق . أنه الحق المطلق الذي ينبثق عنه كل حق ، وهو السلطان الذي خلق كل شيء حقا . في القرآن الكريم عد من الآيات التي تنص على هذا أورد بعضها هنا :

" ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير . " [37]
" ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير." [38]
" فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ." [39]
" فتعالى الله الملك الحق ...." [40]
" هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا ." [41]
" ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ." [42]

هذا هو الحق الأول الذي لا يعلو عليه حق ولا ينازعه حق ، وهو السلطة على الكون . أو كما يصفها أبو الأعلى المودودي أنه المهيمن على قوانين الطبيعة وعلى المخلوقات بما فيها الإنسان ، وأمره واجب الطاعة والإذعان . [43] هذا الحق المطلق هو نقيض الباطل ، أنه"الحقيقة" أما الباطل فوهم .

هذا المستوى من الحق فوق الوعي الإنساني لأنه فوق الضوابط والقوانين الكونية المادية التي من المكن أن تشكل مادة الوعي . أي أنه لا يوجد تفاعل بينه وبين التجربة الإنسانية التي ترسخ في الذهن الإنساني كجزء من الوعي المتصاعد بالمحيط والبيئة . فقط يدخل ضمن الإيمان الذي لا يتطلب التجربة أو التفاعل وإنما الاقتناع بأنه يعبر عن الحقيقة الثابتة .

ثانيا : يصعب تصنيف المستوى الثاني من الحق ومن الضـــروري بـــذل جهـــود إسلامية كثيرة للبحث فيه . وهو وارد في عدد من الآيات منها :

" ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق، وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد"[44]

" تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ." [45]
" نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ." [46]
" قل نزله روح القدس من ربك بـــالحق ليثبـــت الـــذين آمنـــوا وهـــدى وبشـــرى للمسلمين."[47]
" وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ." [48]

حاولت الاستعانة بالتفاسير لفهم معنى الحق الوارد في هذه الآيـــات ، ورأيـــت أن أضع أمام القارئ نموذجين منها ليرى المشكلة التي تواجه الباحث . أُخذ النموذجان من سيد قطب ومن ابن كثير .

يفسر سيد قطب" ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق" كما يلي :" فمن فاء إليـــه فهـــو على الهدى ، وهو في وفاق مع الحق ، وفي وفاق مع المهتدين من الخلق ، وفـــي وفاق مع فطرة الكون وناموسه الأصيل ." [49] أما الآية" نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل" فيفسر قطب كلمـــة بـــالحق بعـــد أن وضعها كلمة" الحق" بالتالي :" وهي تقرر – ضمنا – أنه لا وجه لتكـــذيب أهـــل الكتاب للرسالة الجديدة . فهي سائرة على نمط الرسالات قبلها . وكتابها نزل بالحق كالكتب المنزلة . ونزل على رسول من البشر كما نزلت الكتب على رســـل مـــن البشر . وهو مصدق لما بين يديه من كتب الله ، يضم جناحيه على"الحق" الـــذي تضم جوانحها عليه . وقد نزله من يملك تنزيل الكتب .. فهو منزل من الجهة التي

لها "الحق" في وضع منهاج الحياة للبشر ، وبناء تصوراتهم الاعتقادية ، وشرائعهم وأخلاقهم وآدابهم في الكتاب الذي ينزله على رسوله ." [60]

أما الآية" إنا نزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين النـــاس بمـــا أراك الله ولا تكـــن للخائنين خصيما ." [61] فلا تأخذ شرحا واسعا إذ يقول قطب" وأول ما يبدو هذا في تذكير رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بتنزيل الكتاب إليه بالحق لـــيحكم بـــين الناس بما أراه الله . وإتباع هذا التذكير بالنهي ...." [62]

بالنسبة لمختصر تفسير ابن كثير نجد أن الآية" ذلك بأن الله نزل الكتـــاب بـــالحق ...." قد فسرت كالتالي : " أي إنما استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيـــق الحـــق وإبطال الباطل ، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوا ، فكتابهم يأمرهم بإظهـــار العلـــم ونشره فخالفوه وكذبوه ، وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعـــالى ، ويـــأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وهم يكذبونه ويخالفونه ، ويجحدونـــه ويكتمـــون صفته ، فاستهزأوا بآيات الله المنزلة على رسله ، فلهذا استحقوا العذاب والنكـــال ، ولهذا قال : " بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفـــي شـــقاق بعيد ." [63]

لكن التفسير يختلف بالنسبة للآية :" نزل عليك الكتاب بالحق" حيث يفسرها علـــى أنها تعني بأن الله" نزل عليك الكتاب يا محمد بالحق ، أي لا شك فيه ولا ريب بل هو منزل من عند الله ، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيدا." [64] أما حول الآية" إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم ...." فتفسر على أن" أي هو حـــق من الله وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه ." .... [65] ويختلف التفسير بالنسبة للآية " وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ...." حيث يقول: "يقول تعالى مخبـــرا عـــن كتابـــه

العزيز وهو القرآن المجيد ، إنه بالحق نزل ، أي متضمنا للحق ... ، أي متضـــمنا علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه. وقولـــه "بـــالحق نزل" أي ونزل إليك يا محمد محفوظا محروسا ، لم يشب بغيره ولا زيد فيه ، ولا نقص منه ، بل وصل إليك بالحق فإنه نزل به شديد القوى ، الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى." [56]

يتضح من هذا عمق المشكلة البحثية التي يصادفها الباحث المســلم فـــي محاولتـــه لتحديد المعاني والشروح والتفسير . يتكرر مثل هذا التفسير في الكثير من المواقـــع بحيث يقع الباحث في حيرة ، إن لم يكن في تيه . يضيع جوهر الأمور في بعـــض الأحيان في العبارات المنمقة المشوقة وتبقى الآية في النهاية بدون تفسير ، أو يولد تفسيرها صعوبات أمام محاولات تفسير جديدة . هذا لا يعني الانتقاص من جهـــود الآخرين لكنه يعني أن هناك مشكلة حقيقية تواجـــه الدارســـين ، ومـــن المطلـــوب مواجهتها بالتعامل المباشر مع الموضوع دون إبرازه فقط بعبارات تنم عن عمـــق الإيمان والورع .

على أية حال ، في محاولتي تدبر ما يعنيه هذا المستوى من الحق ، أرى أنه يعـــود إلى الحقيقة الكونية عامة والتي خلقها سبحانه بصورة كاملة متكاملـــة خاليـــة مـــن النواقص والعيوب والثغرات . يتطلب المستوى الأول المتمثل بأن الله هـــو الحـــق إيمانا لا يشوبه شك ، ومتى حصل الإيمان فإنه يرخي السبيل لإيمان منبثـــق عنـــه وهو أن الخلق لا بد بديع الإتقان لأنه صادر عن حق مطلق . يعني أن الإيمان بالله يقود إلى الإيمان بأن الكون بكل ما فيه من كائنات ومخلوقات مرئية أو غير مرئية، معروفة للإنسان أو غير معروفة ، مادية أو معنوية خاضع لقـــوانين إلهيـــة ثابتـــة تنظمه وتنظم مختلف العلاقات داخله بصورة متوازنة .

الكون غير مخلوق عفوا أو صدفة أو اعتباطا ، ويحتل كل شيء فيه موقعه الصحيح . لا يصدر عن الله إلا الحق وقوله الحق . وعندما أرسل الله سبحانه رسله للعباد فإنه أرسلهم بالحق وأنزل عليهم الكتب بالحق . أي أن الرسل والكتب يحملون رسائل سماوية أو نبوات تعبر عن الحق ، وهو النظم الثابتة التي خلقها الله سبحانه . الرسل والكتب لا يحملون كل الحق الكوني لكنهم يحملون ذلك الحق الذي يتعلق بحياة الإنسان والعلاقات الإنسانية ، أي يحملون جزءا من كل . فعندما انزل الله الكتاب بالحق فإنه أنزله يتضمن الحقيقة الكونية أو يعكسها من خلال الجزء المتعلق بالإنسان . وبهذا يكون الدين دين الحق لأنه حمل تلك القوانين والضوابط والوصايا المنسجمة تماما مع الحقيقة الكونية الصادرة عن الحق . وبالتالي يكون المؤمن بالدين متمسكا بالحق والقوانين والنظم الكونية حتى لو لم يدرك كنهها أو لم يعرفها .

هذا كما أرى ، والله أعلم ، هو الحق الكوني أو الخلق الذي إن عمل الإنسان حسبه عاش حياة إسلامية حسب ما أراد الله واطمأنت نفسه وخلت تماما من التناقض . تبعا لهذا الحق يعيش الإنسان حسب القوانين الكونية التي خلقها الله طبيعية ، ويعيش منسجما مع الكون لأن القوانين السلوكية عبارة عن جزء يتكامل مع مختلف أجزاء الكون .

هناك آيات عدة تؤيد هذه الرؤية وهي التي تصف الدين الذي حمله الأنبياء بالحق ، وتتحدث عن الدين كحق في ذات الوقت الذي تتحدث فيه عن الله الحق . وهي آيات تصرح بأن ما يحمله الأنبياء هو الحق وهو حق موجه مباشرة للناس . وفيما يلي بعض هذه الآيات :

" يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ." (67)

" فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ." [58]
" إنّا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم ." [59]
" وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ." [60]

ثالثا : الحق الدنيوي أو الذي يحكم الحياة الدنيا ، وهو الذي يصارع الباطل الـــذي يتمسك به الكافرون . هناك عدد من الآيات التي تشير إلى هذا المستوى أذكر منها:
"ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ."[61]
" ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ." [62]
" الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحـــق وهم يعلمون ." [63]
" وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا ." [64]
" بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ." [65]

بهذا الحق يستطيع المسلمون مجادلة الباطل ، وبه يستطيعون أن يثبتوا للنـــاس أن الإسلام هو دين الحق ، وأن مجريات الأمور في الحياة الدنيا هي التي تؤكد صدق رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وهو مستوى ينقسم إلى شقين:

أ- شق يتعلق بنواميس الكون وهي آيات الله التي تشكل المـــادة العلميـــة للبحـــث الإنساني في عالم الطبيعة . إنها القوانين الطبيعية التي يستطيع الإنسان البحث فيها وبشكل يتسع مع اتساع المعرفة الإنسانية ، والتي بإمكانه خلالها أن يهتـــدي إلـــى

أسرار الوجود فيتأكد من ألوهية الله وربوبيته وهيمنته . تتحدث مجموعة من الآيات حول هذا الشق أذكر منها :

" ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ."[66]
" أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته أنه عليم بذات الصدور ." [67]

ب- شق يتعلق بالحلال والحرام أو بالعلاقات بين الناس والمعاملات والسلوكيات اليومية وهو يحتوي على تعاليم سلوكية تشمل مختلف نواحي الحياة الإنسانية ، وأذكر بعض الآيات كدليل عليه :

" وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ." [68]
" الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم" [69]
" قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ." [70]

مراتب الالتزام

يترتب الالتزام في الإسلام متسلسلا حسب مراتب الحق . على المسلم أن يؤمن بالحق قولا ويلتزم به عملا من خلال قناعات وأفعال وإجراءات وسلوكيات . فيما يلي هذه المراتب :

أولا : الالتزام العقدي

يبدأ الالتزام بالإيمان الذي يشكل التسليم الاعتقادي بأن الله هو الحق . يبدأ إسلام المرء بالإيمان بوجود الله سبحانه وبوحدانيته وبالإيمان بمختلف المناحي العقدية كاليوم الآخر والملائكة والرسل والكتب السماوية . وهذا إيمان يعبر عن قناعة داخلية دون براهين مادية مباشرة . أنه إيمان بالخالق الذي هو فوق الحواس وفوق طاقة العقل الإنساني المؤهل للتعامل مع الحياة الدنيا .

أمرنا الله سبحانه بأن يكون الالتزام الإيماني كالتالي : " قل هو الله أحد . الله الصمد. لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ." [71] وكذلك "... إنما إلهكم إله واحد ..." [72] و "... كل شيء هالك إلا وجهه ..." [73] و " هو الأول والآخر والظاهر والباطن ..." [74] وقال سبحانه : " ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين..." [75]

ثانيا : الالتزام الخلقي

هذا التزام إيماني أيضا ويعني أن يؤمن المسلم بأن السموات والأرض وما بينهما من خلق الله سبحانه وتعالى . الله هو الذي أبدع الخلق ولا شريك له في ذلك. هذا التزام غير خاضع للبحث العلمي المادي وإنما يشكل مادة للتفكر تقود إلى التسليم بقدرة الله وإرادته النافذة . قال تعالى : " الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ." [76] وقال : " وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو

الحكيم الخبير ." [77] وقال : " خلــق الســموات والأرض بــالحق تعــالى عمــا يشركون"[78]

ثالثا : الالتزام العلمي

هذا الالتزام مواز للشق الأول من الحق الخاص بالحياة الدنيا وهو شــق آيــات الله والتي من الممكن للإنسان أن يعرفها بصورة مضطردة مع توسع نشاطه في البحث العلمي . من خلال بحثه في أسرار الخلق أو القوانين الطبيعية التي تحكم المخلوقات تتوسع مدارك الإنسان ومعارفه وقدرته على السيطرة على محيطه وبيئته ويحقــق التقدم في مختلف المجالات . وفوق ذلك ، يرسخ تقدم الإنسان في البحــث العلمــي القناعات العلمية من حيث أنه يكشف دقة الكون وبديع صنعه . ولهذا قال ســبحانه ملزما : " إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ." [79] وقال : " أفلا ينظرون إلــى الإبــل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت ." [80] وقال : " فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافــق ."[81] وقال تعالى : " ... إنما يخشى الله من عباده العلماء.."[82]

هذا وهناك توسع حول هذه المسألة عند الحديث عن التقوى الاستنهاضية فيما يلــي من الصفحات .

رابعا : الالتزام السلوكي

يوازي هذا الالتزام الحق المتعلق بالحلال والحرام وهو السلوك الأخلاقي اليــومي المتعلق بسير الحياة اليومية والعلاقات بين الناس . وهو التزام يشتمل على قضــايا

كثيرة ومتشعبة وتغطي مختلف مجالات الحياة مثل الثبات والتبرج والحسد والمحبة والزواج والصدق والعدل والعفة والغرور والضيافة والرياء والاستئذان ، الخ .

الطاعة

تقترن مراتب الالتزام إسلاميا بالطاعة والتمسك بما أوحى إلى رسول الله عليه السلام . فقد أمرنا الله سبحانه قائلا : " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ." [83] وقال : " وما كان لمؤمن أو مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ." [84] وقال : " فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم . وأنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ." [85] طاعة الله والرسول تنجي من الهلاك وتضع الإنسان على الطريق الصحيح مما يقود إلى حياة مطمئنة في الدنيا وإلى الفلاح بالآخرة . وإن من يخرج عن هذه الطاعة لا بد هالك. قال تعالى : " وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ." [86] وعليه فإن على المسلم ألا يتأثر بأهل الكفر والضلال لأنهم لا يستطيعون الإضرار به أو المساس بمصالحه إذا كان قد اتبع طريق الهداية . وفي النهاية يرجع كل واحد إلى الله ويجد الجزاء المتناسب مع عمله . فقد أوصانا سبحانه : " يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون ." [87]

الطاعة هنا لا تعني فقدان الذات والمبادرة الشخصية ، إذ أن كلمة طاعة تحمل في طياتها مفهوما شعبيا يعني إلغاء الذات نهائيا لصالح قوة خارجية تتحكم بكل حركات الإنسان ونشاطاته وتلغيه هو ككيان . هنا تعني الطاعة الالتزام بالتعاليم السماوية إنما دون إلغاء الذات لأن بناء الذات الإنسانية هو أحد الأركان الإسلامية . أي أن

بناء الذات والمحافظة على المبادرة الشخصية ضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبارة عن عملين ملتزمين بطاعة الله سبحانه. وهذا ما يميز الطاعة بمفهومها الإسلامي عن الطاعة بمفهوم أصحاب نظرية التفويض الإلهي وأصحاب النظريات السياسية الكلية. الإنسان يفقد نفسه عند أصحاب التفويض الإلهي لأن عليه أن يسلم أمره تماما لنائب عن الله ولا يخضع قراره للنقاش ، وهو يذوب في الكل عند أصحاب النظرية الكلية لأنهم لا يعترفون بتميزه أو تمايز القدرات بين الأشخاص.

صحيح أن على المرء أن يطيع أولي الأمر لكن هذا مشروط بإطاعتهم لله ، ولا طاعة لهم إن لم يكونوا في طاعته. حرصهم على بناء الشخصية وفتح المجال أمام المبادرات الشخصية عبارة عن جزء لا يتجزأ من طاعتهم لله. على أية ، حال سيتم شرح هذا الموضوع بصورة مفصلة عند الحديث عن الحرية الشخصية.

يعتقد بعض الكتاب أن مسألة الالتزام والطاعة متعلقة بعقد ، وأن المسلم إنما ينفذ عقدا بينه وبين الحاكم وهو الله. فمثلا يقول صبحي الصالح أن الله أنزل السلطة من السماء إلى الأرض وأصبحت السلطة بذلك بيد الإنسان ، وأن إرادة الإنسان أصبحت على صورة عقد بين المحكومين والحاكم. [88] يبدو أن هؤلاء الكتاب قد تأثروا بفلاسفة أوروبيين أمثال هوبز ولوك والذين رأوا أن الحكم عبارة عن عقد بين طرفين يحدد مسؤوليات وواجبات كل طرف.

على الرغم من أن القرآن يتحدث عن ميثاق خاصة عن الميثاق مع بني إسرائيل ، ويتحدث عن عهد المؤمنين بالله بقوله : " الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق" [89] وبقوله : " ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولا ." [90] وبقوله : " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم

الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التـــوراة والإنجيـــل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفـــوز العظيم ." [91]

لكن هذا العهد مختلف عن العهود بين الناس وعـــن مـــواثيقهم . مواثيـــق النـــاس وعهودهم تحدد شروطا تشمل حقوقا وواجبات ، وقد تشمل مكافآت أو عقابا ، وهي بين متقابلين أو مشتركين في مقومات وصفات . أي أن هناك نوعا من التكافؤ بين طرفي أو أطراف الميثاق . فلو نظرنا إلى عهد الله أو ميثاقه مـــن زاويـــة الفهـــم الإنساني الدنيوي لهما لحصل اعتداء على الذات الإلهية ولتزعزعت أركان الإيمان الأولى والتي تشكل الالتزام الموازي للحق سبحانه . فالله سبحانه فوق كل الشروط والواجبات ، وهو صانع الكون الذي لا يفرض عليه شيء ولا يجبر على شـــيء . وهو ليس في تقابل مع الإنسان ولا على ذات المستوى ،وليس في حالة تكافؤ معه . والنظر إلى الذات الإلهية من هذه الزاوية عبارة عن نفي للكمال الإلهي وبالتالي عن نفي للإيمان . الكامل لا يستوي مع الناقص ، والحق لا يتساوى مع من يحـــاول أن يعرف الحق ، ويبقى المفهوم الإنساني للميثاق على تضاد مع أسس الإيمان .

فضلا عن أن الله سبحانه وتعالى ليس متضررا من أي نقص يعتور سلوك الإنسان وليس مستفيدا فيما إذا التزم الإنسان ، ولن يهتز الكون أو تبطـــل القـــوانين التـــي تحكمه إذا لم يلتزم الإنسان بالعهد . أما الحساب من ثواب وعقاب فغير مرتبط برد فعل وإنما متأصل في الخلق ، أي في العدالة الإلهية . نتيجة العمل مشمولة ضـــمنا في العمل وهي الجزاء الذي يحدده الله سبحانه سواء كان ثوابا أو عقابا . بمعنى أن العهد لا يشتمل على طاعة متبادلة أو التزام متبادل بشروط واقعة على طرفين .
عدم دخول الله سبحانه وتعالى في شروط متبادلة مع الإنسان ، وتأصل الجزاء في العدالة الإلهية وارد في الآيات التي تجمع بين الإيمان والعمل الصالح . يضـــع الله

سبحانه شرطين فيما إذا توفرا معا حقق المرء الفوز العظيم قال تعالى : " وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار..."[92] وقال: " الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب"[93] وقال :" إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ."[94] اقتران العمل الصالح بالإيمان يتكرر كثيرا في القرآن مما يدل على تأكيد إلهي مستمر بأن من آمن وعمل صالحا دخل الجنة . أما إذا لم يؤمن الناس ولم يعملوا صالحا فإنهم لن يضاروا الله شيئا ، ولن يضاروا غير أنفسهم في الدنيا والآخرة .

الإيمان مقترن بالعمل الصالح في آيات كثيرة في القرآن الكريم . فلا الإيمان وحده يؤدي إلى الفوز العظيم ولا العمل الصالح وحده . وفي هذا ما يجمع أركان الالتزام الإسلامي معا . يتزاوج الركن الإيماني المتعلق بالحق سبحانه والحق الكوني مع الركن العملي المتعلق بالحياة الدنيا وبشقيه الخاصين بالعلم والحلال والحرام . أي أن الالتزام عبارة عن كل متكامل ، فلا هو نظري بدون تطبيق عملي ، ولا هو عمل بدون قاعدته النظرية . يشكل الإيمان القاعدة النظرية ويشكل السعي الدنيوي القاعدة العملية . أنه توازن بين هذا وذاك بطريقة تنسجم مع التوازن الكوني ، ومع توازن الأمة كما سنرى لاحقا.

التقوى

ما دام الإنسان بصورة عامة والمؤمن بصورة خاصة يتحمل المسؤولية ، فقد دعا الإسلام الإنسان المسلم إلى التقوى ، أو القيام بتلك الأعمال في الحياة الدنيا التي تقي من النار يوم القيامة وتؤدي إلى الجنة . فقد خاطبنا سبحانه وتعالى قائلا :" واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون" [95] وقال :" واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس

ما كسبت وهم لا يظلمون ." [96] وقال :" يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليما رقيبا ." [97] وقال :" يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ." [98]

أعمال التقوى تقي الإنسان أيضا من عثرات الدنيا وتبعده عن الذل والهوان. فكلما كان الإنسان تقيا كان أقدر على مواجهة الصعاب في الحياة الدنيا وحل المشاكل إن واجهته وذلك بسبب توجهه إلى الله ووضع مخافة الله أمامه . التقوى تخفف على المسلمين وطأة شؤون حياتهم وثقل الهموم والآلام وتدفعهم نحو حياة سلسة يسيرة يجدون فيها هدوءا واطمئنانا . فقد قال تعالى :" فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم ." [99] وقال :" وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ." [100] وقال :" لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير ." [101] أي أن الله يشجع المسلمين على حل مشاكلهم الدنيوية وأن عملهم هذا عبارة عن عمل من أعمال التقوى . وفي جهدهم هذا ما يخفف عنهم المعاناة اليومية والحياتية ويوفر المناخ النفسي المناسب لحياة اجتماعية يسودها التعاون وسلاسة التعامل بين الناس .

لتحقيق التقوى أرسل الله رسله للناس يدعونهم إلى دين الله ويحضونهم على التمسك بالتعاليم . وذلك بالقيام بالأعمال التي تؤدي إلى النجاح الدنيوي والأخروي.

ينطبق هذا على الإسلام الذي أعطى الإنسان اهتماما وعناية دقيقة بغرض إبعاده عن طريق الضلال . والرسول عليه السلام مكلف بالتوجه إلى الناس يدعوهم إلى

الإسلام آحادا وجماعات . قال تعالى :" ومـــا أرســـلناك إلا كافـــة للنـــاس بشـــيرا ونذيرا.." [102] ووعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات الجزاء الجميل إذ قال : " ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يـــدخلون الجنـــة ولا يظلمون نقيرا ." [103] وقال :" من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ." [104]

ولكن ما هي أعمال التقوى التي يجب أن يقوم بها الإنسان المؤمن حتـــى يفـــوز ؟ يضع الإسلام أولا أمور العقيدة كركيزة إيمانية لا يمكن تجاوزها ولا يـــتم العمـــل الصالح القائم على الإيمان إلا انطلاقا منها . وبمجرد ما آمن إنســـان مـــا ، فهـــو بالضرورة مسلم بقضايا العقيدة . يتطابق هذا الخط العـــام مـــع الالتـــزام العقـــدي المتوافق مع الإقرار بأن الله هو الحق المطلق وهو مصدر كل حق . فمن أعـــوزه هذا الالتزام لا يستطيع أن ينتقل إلى مرحلة عملية بحيث تعكس أفعالـــه متطلبـــات التقوى الإسلامية . بعد مرور الإنسان بهذه المرحلة يفصّل له الإســـلام الأعمـــال الصالحة التي عليه أن يلتزم بها والتي يمكن تصنيفها فيما يلي :

الشعائر والمناسك

العبادات المباشرة أو الشعائر والمناسك الدينية المتمثلة بالصلاة والصـــوم والحـــج وأيضا الزكاة هي أولى الأعمال المعبرة عن الإيمان والتي هي فروض على كـــل مسلم ومسلمة . الآيات والأحاديث التي تتحدث عن هذه العبادات كثيرة جدا ، ومـــا يهمنا هنا هو إبراز الملاحظات التالية المتعلقة بموضوعنا :

1- بإمكان الإنسان المؤمن أن يمارس هذه العبادات دون مشـــاركة الآخـــرين إلا بالنسبة للحج بحكم الموسم المحدد بميقات معين . لا توجد شروط تفرض على

المسلم الصلاة مع الجماعة باستثناء صلاة يوم الجمعة ، وكذلك بالنسبة للصوم والزكاة . هذا علما أن فريضة الزكاة مختلفة عن الفرائض الأخرى في أنها تطهير للأموال الشخصية وممارسة اجتماعية في آن واحد .

لكن ما يهمنا الإشارة إليه هنا هو أن الإسلام يفضل جماعية القيام بالمشاعر والمناسك أو المشاركة العامة . صلاة الجماعة مفضلة على صلاة الشخص ، وصيام المشاركة خاصة مع الفقراء أفضل من الانعزال في زاوية خاصة . فضل المشاركة في الإسلام أعظم بكثير من الانزواء . وهذا يعني أن المكافأة الإسلامية من ناحية ميزان الحسنات يوم القيامة تتعاظم مع العمل العام أو النشاط ضمن الجماعة وتتضاءل مع الانعزالية . وقد عظم الإسلام المشاركة في الصلاة ، واعتبر موسم الحج مناسبة للتعارف بين المسلمين والتعرف على أوضاعهم في مختلف البقاع علهم يعينون بعضهم بعضا من خلال ذلك . العبادة مع الجماعة تقوي الأواصر والتفاهم المتبادل وتنسيق الجهود وتساهم في عملية البناء المشترك ومواجهة التحديات بجهود مشتركة ومتكاملة .

2- لا يبالَغ في القيام بهذه العبادات بطريقة تؤثر سلبا على سعي الشخص وعمله . كثرة ممارسة الشعائر وحدتها ليستا شرطا لدخول الجنة أو نيل مرضاة الله . ولنا في الحديث التالي عبرة : عن أنس رضي الله عنه قال : " جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر أبدا ولا أفطر ، وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني"[105]

ولهذا لم يكن هناك إصرار إسلامي على كثرة القيام بالمناسك والشعائر الدينية ، وكان هناك رفض للرهبنة والانعزال عن الحياة العملية . الانهماك في الشعائر يؤثر على مستوى الجهد الذي يمكن أن يبذله الشخص في بنائه الذاتي وفي العمل العام ، وربما يؤثر على استعداداته أيضا . فمن يعتاد حياة العزلة والاعتزال يصعب عليه العيش ضمن حياة عامة مما يؤثر ، كما سنرى ، على عباداته الأخرى المتعلقة ببناء الأمة .

3- تذكر العبادات هذه المسلم باستمرار بالسلوك الصحيح وعمل الخير . إنها ليست مجرد حركات وطقوس وإنما ذات وظيفة لها مردود يتجاوزها . فقد قال عليه الصلاة والسلام :" من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه ." [106] بمعنى أن الصيام ليس مجردا من المعاني السلوكية، ومن لا يريد أن يضبط سلوكه حسب متطلبات التقوى المشمولة في الصوم فعليه أن يراجع نشاطه الصومي . ويورد محمد الغزالي حديثا يقول أن رجلا ورد إلى رسول الله وقال له :" يا رسول الله إن فلانة تذكر من قلة صلاتها وصيامها وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط – بالقطع من الجبن – ولا تؤذي جيرانها . قال هي في الجنة ." [107] الشعائر والمناسك لا تمارس لذاتها وإنما باتصال مع النشاط اليومي الاجتماعي والعام للمسلم . إنها الأرضية الرمزية للالتزام بالتعامل القويم مع الناس والتي تمارس يوميا بشكل يتغلب فيه الإنسان على ضعفه وعلى إمكانية انجراره وراء أطماع أو أهواء تخالف الشرع الإسلامي . إن انفصالها عن التعامل الواقعي الملموس يفقدها جوهرها التعبدي وتتحول إلى عملية رمزية منكفئة على ذاتها دون أن يكون لها أي انعكاس خارجي .

ولهذا لا تشكل هذه الشعائر بحد ذاتها مقياسا للإيمان إن جاز لنا أن نقول أن هناك مقياس . الإيمان بحد ذاته عبارة عن شيء معنوي لا يقاس ، وإنما يمكن قياسه تجاوزا بالانعكاس العملي لمتطلباته التي تعبر عنه . الإيمان يحفز على العمل الصالح والتعامل القويم من وجهة النظر الإسلامية ، وعمل المسلم متناسب مع التحفيز الذي يحدثه الإيمان في داخله . أما غياب الالتزام بها فيشكل مقياسا من حيث أن ممارستها تشكل المادة الأولية للتعبير عن الإقرار بالدين الإسلامي .

تمثل هذه العبادات تقوى شخصية وهي أولى مراتب التقوى والتي يشترك في ممارستها جميع المسلمين ، لكنها ليست تقوى انعزالية أو كهنوتية ، وإنما تشكل قاعدة أولى للانطلاق نحو العمل الصالح . يقول الدكتور محمد البهي بهذا الصدد أن هذه العبادات تساعد المرء على ترسيخ مقومات النفس المطمئنة على حساب النفس الأمارة بالسوء ، ذلك لأنها تكبت الهوى والشهوة وتقوي أسس العدالة والاستقامة والتوازن . إنها تتجاوز الشعائر لتساعد المسلم على التغلب على التناقضات الداخلية فيشعر معها أنه وحدة متكاملة ، وتقود إلى وحدة الجماعة الإسلامية . (108)

ثانيا : التقوى الاجتماعية

المسلم مأمور بالعمل الصالح تجاه الآخرين . عليه القيام بالأعمال الخيرة وذلك كجزء متكامل من أعمال تحقيق الحرية . أنه بفعل الخير يتحرر من عبودية المادة ويتوجه نحو مرضاة الله ، ويضع نفسه بذلك على الطريق نحو حياة مطمئنة في الدنيا وفوز عظيم في الآخرة . ففعل الخير أساسا ليس للآخرين ، وإنما جزء من التحرير الذاتي الذي يدخل ضمن المسؤولية الشخصية . به يرتقي الإنسان عن انكفائه نحو الذات وينبذ أنانيته ويخفف من حرصه على متاع الحياة الدنيا . أنه

الوسيلة لتحقيق الذات المؤمنة وكبح تلك الصفات الأصيلة التي وصف بها الإنسان كالكفور والجهول والظلوم ، الخ ، وذلك في مرحلة ما قبل الإنشاء . فمن يطعم فقيرا أو يقدم اكتشافا علميا أو يقوم بواجبه الإداري فإنه يكون قد قام بعمل ذاتي على هيئة اجتماعية ، أو يكون قد خدم ذاته من خلال خدمة غيره . أي أن فعل الخير في الإسلام عبارة عن جدل بين الذاتي والموضوعي بحيث تتحقق العلاقة المتبادلة بينهما ويتعزز أحدهم ا بالآخر . وهنا بالضبط يظهر ، حسب المصطلح الحديث ، تكامل الأضداد في علاقة متبادلة تعزيزية . وهذا ما يمكن أن نسميه بالتقوى الاجتماعية .

الذي لا يقوم بعمل الخير ولا يتحلى بالفضائل والأخلاق الحميدة إنما يعتبر بعيدا عن التقوى وخارجا عن التعاليم الإسلامية وظالما لنفسه ، وهو بذلك يكون منكفئا على الذات وعبدا لأنانيته المتمثلة بالاستغراق الشهواني والاستمتاع الدنيوي . قال تعالى بحق هؤلاء :" مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ؟" [109]

القراءة المتأنية للقرآن تشير إلى أن أوامر الله سبحانه للمؤمنين بخصوص أفعال التقوى الاجتماعية كثيرة جدا ، وهي أكثر بكثير من أوامره الخاصة بالتقوى الشخصية أو العبادات ذات الشعائر . وقد صدرت هذه الأوامر غالبا في توجيه للمؤمنين . وأذكر هنا بعضها للإشارة فقط وليس للاستنفاذ :

" يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ." [110]
" يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ." [111]

" يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ...." [112]
" يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ." [113]
" ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ." [114]
" وأوفوا بالكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا ." [115]

لا تقتصر التقوى الاجتماعية في الإسلام على فعل الخير للآخرين، بل إن المسلم مطالب بألا ينسى نفسه وعليه أن يتمتع بخيرات الدنيا ولكن بدون إسراف أو تقتير. وكما يثاب الإنسان على فعل الخير للآخرين فإنه يثاب أيضاً على إشباع حاجاته وعلى تطوير قدراته وطاقاته. فتحقيق الذات لا يتم من خلال نفي الذات وإنما من خلال تأكيدها وتلبية حاجاتها دون أن يكون ذلك بجشع على حساب الآخرين أو بأنانية تعزل الإنسان عن الآخرين. قال تعالى: "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون." [116] وقال: "وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون."[117] وقال :"يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا أنه لا يحب المسرفين." [118]

هنا يظهر التوازن الإسلامي في تعليماته حول حرص الشخص على مصالحه الذاتية من خلال تلبية حاجات ذاته ومن خلال تلبية حاجات المجتمع. الثواب لا يقتصر على فعل الخير للآخرين وإنما يشمل أيضاً فعل الخير للذات. حرمان الذات من أجل الغير ليس أولوية إسلامية وإمتاع الذات على حساب الآخرين لا يجوز. يوازن المرء في الإسلام بين إيثار الذات ونفيها. أنه لا يميز ذاته كموقف مسبق

حيال الآخرين ولا ينفيها كموقف مسبق حيال نفسه. يخرجه الأول من دائرة الانعكاس العملي للإيمان ويدخله الثاني في دائرة المبالغة في التعبير الإيماني.

ثالثاً : التقوى الاستنهاضية

قد لا يحظى هذا التعبير بإجماع الأكاديميين، لكنه على أية حال مطروح للنقاش. وما أعنيه بهذا التعبير هو تلك الأعمال التي يقوم بها المسلم كجزء من متطلبات تحقيق الفوز العظيم وغايتها إقامة الأمة الإسلامية والمحافظة عليها ورفع شأنها في مختلف ميادين الحياة. وقد تكون هذه الأعمال ذاتية أو مشاركة. وهي أعلى مراتب التقوى لأنه، كما سنرى فيما بعد، لا يرتقي إسلام المسلم إلى مراتب عالية إلا بوجود الأمة. إنها التقوى التي يتم التعبير عنها بأعمال تقود إلى تحقيق الخير للأمة كأشخاص وكجماعة. وهذه التقوى، حسب تقديري، هي المعيار الإسلامي في تحديد المسؤوليات العامة. إنها الإطار الذي تندرج تحته الأعمال العامة التي تنهض بمستوى الأمة وتضعها على طريق العمران والبناء، وهي التي تجعل من المسلمين أمة ومن الأمة الإسلامية أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. أي أن مرتبتي التقوى الأوليتين تساعدان المرء على التعامل الحسن مع الناس وإقامة علاقات ودية وعلاقات تعاون محدود لكنهما لا يؤديان إلى بناء الأمة. يحتاج بناء الأمة إلى سهر وتعب وتضحية وجهاد مما يعني ضرورة توفر مراتب أعلى من التقوى.

حتى تتضح الفكرة نأخذ مثل الذي يقوم بالمناسك ويتصدق على الفقراء لكنه يبتعد عن العمل العام ويتركه للذين لا يعتمدون الإسلام كمنهج حياة. يطبق هذا جزءا من التقوى المطلوبة إسلامياً أو يكتفي فقط حسب هذا الكتاب بمراتب متوسطة من التقوى ولا يقفز إلى تلك التي تخلق الأجواء المناسبة لإقامة الحياة الإسلامية. يتحدث هذا كثيراً عن ضرورة إقامة الإسلام كمنهج حياة وينتقد كثيراً الذين لا

يطبقون الإسلام، ولكنه لا يحرك ساكناً من أجل تغيير الوضع لصالح الإسلام. هذا الموقف لا يلتزم بالتقوى الاستنهاضية وتبقى تقوى الشخص غير مكتملة. الحياة الإسلامية ليست خاصة ولا يستطيع أحد أن يعيش حياة إسلامية متكاملة ضمن حياة خاصة به لأن مثل هذه الحياة لا تقيم أمة. لا بد من القيام بنشاطات عامة تدفع باتجاه التقدم العام وذلك كجزء من التقوى التي تقود الإنسان إلى الفوز العظيم .

تختلف التقوى الاستنهاضية عن التقوى الاجتماعية من حيث أن الاستنهاضية تعبر عن وعي مسبق بالدور العام الذي يجب أن يلعبه الإنسان من أجل البناء الهادف الواعي. أما التقوى الاجتماعية فعبارة عن نشاط عادي يقوم به المرء عن وعي أو غير وعي وقد يهدف إلى البناء العام أو لا يهدف. من المحتمل أن يؤدي النشاط الاجتماعي إلى البناء لكنه ليس مشروطاً به أو بالوعي به. أما النشاط الاستنهاضي فمشروط بالوعي بالهدف ومحكوم بهما. وقد خاطب سبحانه المسلمين في العديد من المواقع محفزاً تفكيرهم ومستنهضاً هممهم من أجل إقامة الأمة والمحافظة عليها. الوعي بالشيء أساس العمل، ومن المتوقع أن ينتقل خطوة إلى الأمام بعد القيام بنشاطاته العادية حسب الأصول الإسلامية وذلك بأن يعي الهموم العامة وأوضاع المسلمين ويعمل على المشاركة في الخطوات النظرية والعملية نحو البناء والنهوض. وكلما ارتقى وعي المسلم أصبح أقدر على الرقي بمراتب التقوى، وبالتالي أقدر على تحقيق الصالح العام.

النشاط الاجتماعي قد يكون منظماً وقد لا يكون. المرء يقوم بنشاطاته الاجتماعية في أغلب الأحيان على أسس شخصية ولا يقصد فيها العمل المنظم. أما النشاط الاستنهاضي فيتطلب التنظيم لأنه قائم أصلاً على الوعي بالهدف الذي يفترض ضرورة التفكير المسبق بالنشاط ووضع الخطط اللازمة للتنفيذ وحشد الإمكانات ضمن رؤية واضحة المعالم. والنشاط الاجتماعي لا يتطلب بالضرورة العمل

الجماعي. قد يتطلب النشاط الاجتماعي عملاً جماعياً وإنما في مواقف خاصة لا تشكل النمط العام الذي يسود النشاط الاجتماعي. أما النشاط الاستنهاضي فيتميز بالعمل الجماعي إلا في حالات خاصة مثل كتابة كتاب يساهم في التطور الفكري العام. بالتعريف يتطلب النشاط الاستنهاضي التكاتف والعمل معا. الإنجاز العام يتطلب جهداً جماعياً. وعليه فإن المسلم يتوجه نحو العمل معاً أو بالتعاون مع الآخرين إذا شاء أن يتجاوز مجرد النشاط الاجتماعي العادي.

خاطب سبحانه وتعالى المؤمنين قائلاً: "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ..." [119] هذا أمر يسري على المسلمين والمسلم الشخص ليس في حل منه. أنه مسؤولية المسلم والمسلمين في آن واحد. وهذه تقوى استنهاضية لأن العدل هو أساس الحكم. وقال سبحانه: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ..." [120] من خلال الإعداد يعمل المسلم كشخص والمسلمون كجماعة على ردع الأعداء والمحافظة على الأمة. وقال: "انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون" [121] وفي ذلك مواجهة للأعداء الذين يبغون تدمير الأمة. وتشمل الأوامر الإلهية بهذا الصدد تطوير قدرات المسلم على استيعاب الأمور، أو، حسب المصطلحات الحديثة، تحليل الأمور والوعي بها. فقد طلب من المسلم أن يتفكر وذلك من خلال آيات كثيرة وذلك بقصد الوقوف على تفصيلات الأمور، وطلب منه أيضاً أن يعقل ويتعقل بقصد وضع الأمور في قالب شمولي. فقد قال سبحانه: "ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون" [122] وقال: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم

تعقلون."[123] وقال: "قل انظروا ماذا في السماوات والأرض ومـــا تغنـــي الآيـــات والنذر عن قوم لا يؤمنون." [124] . هذا ومن الملاحظ أن القرآن يخاطب المســـلمين في الغالب كجماعة ويطلب منهم الوفاء بالالتزامات كجماعة.

وقد دعانا الله إلى استخلاص النتائج من خلال آياته ونواميسه التي لا تنتهي والتـــي تقودنا حتما إلى الإيمان الذي لا تشوبه شائبة. والبحث في هذه النواميس هو الـــذي يؤدي إلى التأكيد على ما جاء به الرسول عليه السلام وأن الإسلام هو دين الحق. والبحث فيها أيضا هو الذي يعزز القدرات العلمية للأمة التي تقود إلى الاكتشـــاف والابتكار والاختراع. قال تعالى"قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلـــق ...." (125) وقال: "الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيـــات لقـــوم يتفكرون." [126] وقال" لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون."[127]

وقد وضع الله سبحانه وتعالى العلم في قمة التقوى الاستنهاضية وقال عن العلماء: " ... إنما يخشى الله من عباده العلماء ...." [128] وقال أن العلماء هم الذين يفهمون القرآن أكثر من غيرهم:" بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم..." [129] وقال :" ...فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنـــة وابتغـــاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب." [130] على الرغم من الاختلاف حول الوقوف في هذه الآية ، هل هو قبل" والراسخون في العلم" أو بعد ، إلا أنها تعطي أهل العلم مكانة خاصة. وهذه المكانة محفوظة في الآية "... يرفع الله الذين آمنوا مـــنكم والـــذين أوتوا العلم درجات ..." [131]